مجلة كلية الآداب. جامعة الإسكندرية . المجلد ٧١ . العدد ١٠٣ .

رواية التجربة الاعتقالية الفلسطينية _ وليد الهودلي أنموذجًا_ دراسة موضوعاتية

بحث من إعداد:

شفاء أبو خليل

ملخص البحث

يأتي الهدف العام من هذا البحث في محاولة لترسيخ أدب المعتقلات، هذا الأدب الذي يتعرض لمحاولات الهجوم والاقتلاع من الجذور، حيث إن الدفاع عن القضايا الوطنية لا يكون فقط عبر موروثها الأدبي، ولكن عبر البحث الذي يغوص عميقاً في البنى الداخلية لهذا الموروث، هذه البنى التي تجعل منه أدباً متمكناً متميزاً لا يمكن اقتلاعه.

هذا وقد ركز البحث على خمسة نماذج روائية من أعمال الكاتب الفلسطيني (وليد الهودلي) في دراسة تطبيقية معنونة ب "الموضوعات السردية"، حاولت الدراسة بداية تثبيت مصطلحات البحث في الموضوعات السردية، ليستند إليها في الجانب التطبيقي والتحليلي للروايات قيد الدراسة، وذلك لتوضيح الرسالة التي تصبو إليها هذه الروايات .

وقد كانت رواية التجربة الاعتقالية من أكثر الأنواع الأدبية تعبيراً عن المعاناة التي يعيشها الأسرى داخل زنازين الاحتلال، حيث تطرقت الروايات قيد الدراسة إلى ممارسات السجان، وما يتعرض له الأسرى من إهانة، وقمع، وإذلال، وممارسات وحشية تفوق في حدودها اللاإنسانية؛ فقد تناول البحث موضوعات الاعتقال والتعذيب والحرمان و التحدي والصمود والموت، وكان التركيز على موضوع التعذيب؛ لأن السجان الإسرائيلي يتفنن بتعذيب الأسرى وحرمانهم من أبسط حقوقهم الإنسانية كما أظهرت الروايات قيد الدراسة.

Abstract

The general objective of this research is to seek to establish the domain of prison's literature that has been subject to many attempts of uprooting as defending national causes can be pursued, in addition to its literary heritage, through conducting deep analysis into the internal components of this heritage, such components that make this literary genre a perfect and distinguished genre than can never be uprooted.

In this sense, this research has focused on five novelistic models taken from the works of the Palestinian writer Walid Al-Hawdali in an empirical titled "Narrative Themes" that has sought in the first place to establish and regulate the narrative terms to be relied on in the analysis and application of the studied novels in this research, in an attempt to articulate the message these novels seek to deliver.

The novel of the prison experience is the most reflective literary genre in portraying the suffering of the Palestinian prisoners in the Israeli jail as the studied novels in this research has discussed the practices of the Israeli prisoner and the suffering of Palestinian prisoners in terms of humiliation, oppression and inhuman brutal measures. In general, the research explores main themes like imprisonment, torture, deprivation, challenge, resilience and death. However, the research mainly focuses on torture since the Israeli jailor has mastered torturing Palestinian prisoners and deprived them from their basic human rights as shown in the studied novels.

المقدمة

إن أدب المعتقلات من أرقى أنواع الأدب التي كتبت عن القضية والوطن، فقد ذاع صيته بين الآداب الأخرى؛ لما يمتلك من أشكال أدبية متنوعة الموضوعات والأغراض، نجحت في جذب القراء والنقاد والباحثين عن سبر أغوار مختلف الفنون المنبثقة عنها، كالمسرحيات والشعر والقصص والرسائل والروايات وغيرها .

وتأتي أهمية هذا الأدب في توثيق ما خطه المعتقلون الفلسطينيون وراء زنازين الاحتلال بصورة واقعية، تجسد معاناتهم التي انطلقت من رحم الوجع ومرارة العيش .

وتعد الرواية الفلسطينية أحد أهم الأجناس الأدبية التي تستند إلى الواقع في أغلب نماذجها، فقد استنسخت هذه الرواية بشكل متفاوت فيما يتعلق باستيعاب شكل الرواية الفني تاريخ فلسطين والشعب الفلسطيني منذ وعد بلفور حتى وقتنا الحاضر. فقد صور الروائيون الفلسطينيون واقعهم وأحداثه السياسية، وقدموا ذلك الواقع من خلال روايات فنية، أو من خلال وقائع روائية.[١]

ولعل من أقرب الروايات الفلسطينية إلى الرواية الواقعية رواية (التجربة الاعتقالية)، إذ إن هذه الرواية تقوم على مفهوم فضاء المعتقل؛ لما يتمتع به هذا الفضاء من خصوصية تميزه عن غيره من الأفضية، فهذه الرواية تجمع إضافة إلى واقعية الحدث واقعية اللغة الوصفية والسردية والحوارية .

من هنا أصبحت ظاهرة المعتقل أحد أهم الموضوعات الرئيسة لرواية التجربة الاعتقالية، إذ تناول كتابها وأدباؤها المبدعون بصورة تسجيلية تلك الظاهرة التي تظهر وحشية وأساليب السجان وممارساته القمعية في معاملة الأسرى، الذين صمدوا أمام حفلات المحققين، ورفضوا الظلم بكتاباتهم التي شكلت وثيقة إدانة تدين السجان وإجراءاته العنصرية القمعية.

أسباب اختيار البحث:

كان أحد أهم بواعث إعداد هذا البحث، هو رغبتي الشديدة في ولوج عالم أدب المعتقلات، والتعرف إلى الجديد منه، فوقع اختياري على الرواية، لتكون موضوعًا للدراسة؛ لما تتمتع به من مكانة بارزة بين الأنواع الأدبية الحديثة، فهي" "أم الأنواع"، إذ هي النوع الأقدرعلى امتصاص كل الأنواع وادماجها في بنيتها الخاصة" [٢] . بناء على ذلك، جاءت حاجة البحث إلى اختيار أنموذج الرواية المجسد للرواية الفلسطينية، فلفت انتباهي رواية التجربة الاعتقالية الفلسطينية، فإذا كانت الرواية الفلسطينية تعرضت لحالات القمع والعنف التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني كاملًا ، فإن رواية التجربة الاعتقالية قدمت وصفًا دقيقًا لما يحدث داخل السجون الإسرائيلية، وما يتعرض له الأسرى من إذلال وتعذيب وقسوة ووحشية غابت فيهما الإنسانية والرحمة . فلم تجد الباحثة

---

(١) انظر يوسف حطيني، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب)، ١٩٩٩، ص ص . ٥٠-٥٤.

(٢) سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة" الوجود والحدود" (الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠١٢) ، ص ص ٧٨،٧٩.

خيرًا منها إضافة نوعية على مستوى النص السردي، فالرواية إحدى أهم الفنون السردية، بالمقابل فإن" السرد أداة من أدوات التعبير الإنساني"[٣]، فوقفت طويلًا عليها لأتعرف مضامينها وتقنياتها السردية المتعددة؛ ما أثار فضولي ودفعني إلى وضع عنوان يلبي لي حاجاتي ويعززرغبتي في الولوج إلى عالم مثل هذه الروايات، تحت مسمى (رواية التجربة الاعتقالية الفلسطينية _ وليد الهودلي أنموذجًا_ دراسة موضوعاتية).

وقد وجدت الباحثة أن الدراسات التي تناولت تجربة المعتقلين الفلسطينين في سجون الاحتلال الإسرائيلي وهذا النوع من الروايات لم تكن دراسات شاملة تفي بعض الموضوعات حقها، حيث إنها لم تطرق باب الدراسات الموضوعاتية والفنية ولم تعطها حقها من الدراسة .

حدود البحث:

تناولت الدراسة خمسة نماذج روائية من أعمال الكاتب وليد الهودلي، تدور جميعها في فلك واحد هو مكان المعتقل .

منهج البحث:

وحتى تكتمل الفائدة المرجوة من وراء هذا البحث، يجب اختيار المنهج الأنسب والأقدر على مد الباحث بالأدوات الاجرائية الفعالة، التي تعينه على سبر أغوار النص والكشف عن خفايا الكتابة وأساليبها عند الروائي وليد الهودلي من خلال الروايات قيد الدراسة، ومن هنا كان اختيار المنهج الموضوعاتي، وهذا لا يعني عدم الاستفادة من المناهج الحديثة في الحدود التي تخدم البحث .

محتويات البحث:

قسمت الباحثة الدراسة إلى تمهيد ومقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

إذ يتعرض التمهيد إلى بعض المصطلحات والتعريفات التي لها علاقة بالبحث، وتجربة السجن في الأدب الفلسطيني.

يتناول المبحث الأول أبرز القضايا المعنوية التي تعرضت إليها رواية التجربة الاعتقالية وهي : التعذيب والحرمان والتحدي والصمود .

ويأتي المبحث الثاني ليعرض نماذج الشخصية في رواية التجربة الاعتقالية الفلسطينية، حيث يقسمها إلى نموذجين رئيسين هما:شخصية الرجل النموذجية، وشخصية المرأة النموذجية.

أما المبحث الثالث، فإنه يتحدث عن البنية الزمكانية في روايات التجربة الاعتقالية الهودلية، إذ يركز الجزء الأول من هذا المبحث على الأبعاد الأساسية التي يرتكز عليها الزمن في رواية التجربة الاعتقالية وهي: الزمن الطبيعي والزمن النفسي.

([٣]) عبد الرحيم الكردي، السرد في الرواية العربية المعاصرة " الرجل الذي فقد ظله أنموذجاً"، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٩٩) ، ص . ١١.

واختص الجزء الثاني من هذا المبحث للوقوف على البنية المكانية، وذلك من خلال تقديم التشكيلات المكانية في الروايات قيد الدراسة، حيث اهتم هذا الجزء من المبحث بتقنية وصف المكان .

وختم البحث بعرض لأهم النتائج والملاحظات العلمية التي تمخضت عنها الدراسة .

التمهيد

. الدلالة اللغوية للفظة المعتقل:

جاء في كتاب (لسان العرب) لابن منظور حول مفهوم المعتقل أنه: من المصدر عقل عقلًا، نقول عقل له الشيء، أي حبس عليه عقله، والعاقل يحبس نفسه ويردّها عن هواها، واعتقل لسانه إذا حبسه ومنع الكلام. وسمّي العقل عقلًا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه، واعتقل، حبس، ومنه المعتقل المحبوس[٤]، والمعتقل والسجن كلمتان مترادفتان.

. الدلالة الاصطلاحية :

ويُقصد بالمعتقل أو السجن تلك المؤسسات المعدّة خصيصًا لاستقبال المحكوم عليهم بعقوبات مقيّدة للحرية وسالبة لها. وهي تشترك في ذلك مع الحكم بالأشغال الشاقة والاعتقال، حيث يُحرم المحكوم عليهم من الخروج أو متابعة الحياة بشكل عادي في أجواء طليقة، والحيلولة دون ممارسة أي نشاط ما. وعادة ما يرتبط بالمعتقلات عدة مفاهيم تسميات مثل الإصلاحيات أو مراكز التأديب أو دور الإصلاح والتهذيب أو التقويم أو مؤسسات إعادة التربية أو غير ذلك من التسميات[٥].

تعريف أدب المعتقلات

أدب المعتقلات: هو أحد أشكال إبداعات الأسرى، وكل ما أنجزوه عبر مسيرتهم النضالية والجماعية الطويلة[٦]، وهو جزء من الأدب العربي المعاصر في فلسطين والأدب الوطني والقومي؛ لما يحمل من مميزات وخصائص وحسّ إنساني وعاطفي ورقّة مشاعر وأحاسيس ومصداقية، وقدرة على التعبير والتأثير، وهو كل ما كتبه الأسرى داخل الاعتقال وليس خارجه، بشرط أن يكون من أجناس الأدب كالرواية والقصة والشعر والنثر والخاطرة والمسرحية والرسالة[٧].

وعرفه (ممدوح عدوان) في كتابه "حيونة الإنسان" بأنه: "نوع من الأدب الذي استطاع أن يكتبه أولئك الذين عانوا السجن والتعذيب، خلال فترة سجنهم وتعذيبهم أو بعدها أو كتبه الذين رصدوا تجارب سجناء عرفوهم أو سمعوا عنهم"[٨].

---

(٤) ابن منظور، لسان العرب (بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، مجلد ١١، ط (٣)، ١٩٩٤) ، "مادة عقل"، ص ص .٤٥٨ ، ٤٥٩.

(٥) نبيل العبيدي، أسس السياسة العقابية في السجون ومدى التزام الدولة بالمواثيق الدولية (القاهرة:المركز القومي للإصدارات، ٢٠١٥) ، ص . ١٣٤.

(٦) مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة: موسوعة تجارب الأسرى الفلسطينيين والعرب (فلسطين: القدس، ٢٠١٤) ، ص . ٧٤.

(٧) رافت حمدونة، الجوانب الإبداعية للأسرى الفلسطينيين (فلسطين: وزارة الإعلام، ٢٠١٨) ، ص . ١٦٥.

(٨) ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، (سوريا: دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، ط٦، ٢٠١٦)، ص . ١٦.

ويمكن القول إن أدب المعتقلات هو صوت المعتقل في مقاومة سجّانه بإحساس مرهف معبّر عن أفكار المعتقلين ومشاعرهم ومأساتهم، بقالب فنّي، أضاف إلى الأدب العربي عامة، والفلسطيني خاصة، إضافة نوعية وكميّة، فأضحى جزءًا من المقاومة الثقافية العربية والفلسطينية التي تروي حكاية عالم الوحوش الكاسرة خلف ستائر العتمة.

فرضت تجربة المعتقل نفسها على الأدب العربي منذ قديم الزمان، فقد جسّد شعراء العرب في الجاهلية والإسلام أشكال التعذيب في المعتقلات ومراحله وأساليبه في قصائدهم، ورسموا صورًا واضحة المعالم لشخصيات السجّانين ومعاناة المعتقلين وعذابهم، ولحظات ضعفهم وصمودهم، وهواجسهم وأحلامهم وأفكارهم. وقد تصدّى لتناول هذه التجربة الإنسانية القاسية عدد وافر من الشعراء ونظموا فيها قصائد تقطر ألما[٩].

ومع تواصل القمع، صار المعتقل السياسي أحد الموضوعات الرئيسة للأدب العربي الحديث و المعاصر، فهي تمثل فضاء المعتقل وما يحدث داخله من حرمان وظلم، فنجد أن النتاجات الاعتقالية الفلسطينية تمتاز عمّا سواها من النتاجات العربية والعالمية بأنها الأغنى والأكثر شمولية وزخمًا من حيث الكم والكيف بين تجارب الشعوب وحركات التحرر، ويعود ذلك إلى ارتباطها بالقضية الفلسطينية وتحرير فلسطين وطبيعة الاحتلال الصهيوني، فهو الأطول في التاريخ، ولم يبق شعب من شعوب العالم تحت الاحتلال غير الشعب الفلسطيني. ونذكر أول كتاب فلسطيني وُضع في أدب المعتقلات هو للكاتب "خليل بيدس" بعنوان "أدب السجون" أثناء فترة اعتقاله في سجون سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين. وكتب الشاعر الشعبي عوض النابلسي بنعل حذائه على جدران زنزانته ليلة إعدامه في تلك الفترة من العام ١٩٣٧ قصيدته الشهيرة "ظنيت إلنا ملوك نمشي وراها رجال". وكتب الدكتور أسعد عبد الرحمن في بداية سبعينات القرن الماضي "يوميات سجين". كما صدرت مجموعة قصص "ساعات ما قبل الفجر" للأديب محمد خليل عليان في بداية ثمانينات القرن الماضي، و"زنزانة رقم صفر" ليعقوب أحمد يعقوب، و"أيام مشينة خلف القضبان" لمحمد أحمد أبو لبن، و"ترانيم من خلف القضبان" لعبد الفتاح حمايل، و"رسائل لم تصل بعد" ومجموعة "سجينة" للراحل عزّت الغزاوي، و"نداء من وراء القضبان" و"عناق الأصابع" لعادل وزوز، و"زنزانة رقم ٧٠٦" لجبريل الرجوب، و"أحلام بالحرية" لعائشة عودة. وفي العام ٢٠١١ صدر "الأبواب المنسية " للمتوكل طه، ورواية "سجن السجن" لعصمت منصور، وأعمال أخرى لكتاب فلسطينيين ذاقوا مرارة السجن[١٠]. وقد تجاوزت إسرائيل جميع الأعراف والقوانين الدولية ضاربة بها عرض الحائط حيث استخدمت قانونها الداخلي وقضاءها العسكري، فأصدرت مئات الأوامر العسكرية لاعتقال المواطن الفلسطيني وتعذيبه بطرق محرّمة دوليًا، فأصبح التعذيب قانونًا مشرعًا من قبل حكومة إسرائيل[١١]، وعملت جاهدة على حرمان الأسرى من أبسط حقوقهم الإنسانية، من خلال سياسة الاعتقال الإسرائيلية والتعذيب المستمر.[١٢]

---

(٩) يوسف شعبان، أدب السجون (القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤) ، ص . ٣٣.

(١٠) جميل السلحوت، أدب السجون (فلسطين : دار الجندي للنشر والتوزيع، ٢٠١٢) ، ص ص .٧ ، ٨.

(١١) رياض العيلة، عبير ثابت، الرؤية المستقبلية لحل قضية الأسرى الفلسطينيين (غزة،: مؤتمر الأسرى، ٢٠١٣) ، ص . ٥.

(١٢) رياض مزهر، الاعتقال في السياسة الإسرائيلية في منظور القوانين (غزة،: مؤتمر الأسرى، ٢٠١٣) ، ص . ٢.

المبحث الأول: القضايا المعنوية

الاعتقال والتعذيب :

تشغل ثيمة (قضية) التحقيق والتعذيب حيزًا ملحوظًا من خطاب رواية التجربة الاعتقالية، حيث تتعرض الرواية لهذا الموضوع، فتسلط الضوء وبكثافة على الجوانب المؤلمة من حياة السجين، ليصبح جزءًا لا يتجزأ من متنها الروائي، فأكثر ما يميز روايات التجربة الاعتقالية هو سجالها وفضحها لأساليب التعذيب والتنكيل التي تمارس بحق المعتقلين بغية إذلالهم وإذعانهم ومحاولة لقمعهم وقهرهم وتحقيرهم وتجريدهم من إنسانيتهم، ففي السجن يتجرد السجان من إنسانيته، حيث يتولى مرسوم التعذيب الذي لايتوقف إلا باعتراف السجين أو استشهادة، فيجد في التعذيب لعبته الممتعة وفي القتل هوايته المسلية، التي تهدف إلى تدمير كيان ال سجين الضحية وإيصاله إلى وضعية "الحية-الميتة"، أو كسر إرادته ومناعته وكثافته الذاتية بحيث يصبح ملكًا للجلاد، يتصرف به كيف يشاء، بغية سحب الاعتراف منه بكل وسائل الضغط الممكنة، والحالة المثلى للتعذيب هي حين يصل الجلاد بالسجين إلى تطويعه وتحويله إلى "متعاون أو مخبر".[١٣]

والتعذيب، تعريفًا، هو ذلك الفعل المؤذي الذي يمارسه الإنسان على الإنسان الآخر عقوبة ردعية أو تربوية أو لإجباره على أمر ما، كفعل معين أو البوح بمعلومات في التحقيق، وأحيانًا كطقس ديني أو تجميلي أو لسبب اقتصادي وأحيانًا كممارسة تدريبية، أو للاستمتاع فقط، وهذا هو المخيف، وقد يضطرمن يتعرض له إلى الاستجابة لطلب المشرفين على التعذيب بتحمل مسؤليات لا علاقة له بها أصلًا ، وربما اضطر إلى اختلاق معلومات لكي يخفف التعذيب عن نفسه ولو إلى حين، وقد يصل الضحية إلى درجة الاستعداد إلى تبني أي جريمة تنسب إليه أو يراد منه تبنيها[١٤] .أمّا اتفاقية مناهضة التعذيب، فقد عرّفت التعذيب بأنه عمل ينتج عنه ألما أو عذابًا شديدًا، جسديًا كان أم عقليًا ، يلحق بشخص على عمل ارتكبه أويشتبه في أنه ارتكبه.[١٥]

---

(١٣) مصطفى حجازي ، الإنسان المهدور، (المغرب : المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٥)، ص ١٣٠ .

(١٤) عدوان ، مرجع سابق، ص ص . ١٦ ،١٧ .

(١٥) رأفت حمدونة، مرجع سابق ، ص . ٦٤ .

صور التعذيب الجسدي والنفسي في رواية التجربة الاعتقالية:-

إن ثيمة (موضوع) التعذيب في سجون الاحتلال هي من العناصر الرئيسة في رواية التجربة الاعتقالية، كونها تمثل حالة الألم الملازم للسجين والتي يصعب محوها من ذاكرته؛ لما تترك عليه من اثار جسدية ونفسية قاسية.

يبدأ تعذيب السجين منذ اللحظة الأولى لاعتقاله، ولا تتم عملية الاعتقال إلا بطرق عنيفة ومؤذية، حيث يعمد المحتل إلى إطلاق الألفاظ المسيئة للمعتقل، وإجبار المعتقل على التعري وإبراز القسوة في طريقة الاعتقال تلك، لبث الرعب والخوف داخل المعتقل وتكبيله ووضع العصبة على عينيه؛ لوضعه في جو مربك ومهين وبطريقة وحشية وفظة.[١٦] وهذا ما يؤكده حديث السارد السجين:"جعلت إسرائيل منا مرتعًا لأبشع وسائل التعذيب.. تتفنن في تنكيلنا بطرق لا تخطر على قلب إنسان".[١٧]

تناولت رواية التجربة الاعتقالية بصورة تسجيلية أساليب الاحتلال وممارساته في معاملة السجناء منذ اللحظة الأولى لاعتقالهم، حيث يتعرض المعتقلون طوال فترة اعتقالهم لشتى صنوف التعذيب والإهانة. فممارسات الاعتقال والتعذيب تأتي سويًا إلى الحد الذي يصعب معرفة أيهما يأتي أولًا ، حيث يشكل الاعتقال الأداة القمعية الأولى التي يمارسها الاحتلال ضد المعتقل، فتبدأ منذ مداهمة جنود الاحتلال لمنزله وتكسيره وخلق حالة من الخوف والفزع بين أفراد الأسرة، خاصة الأطفال منهم على حد وصف الساردة : "اقتحموا البيت بأسلحتهم وعتادهم ....همست' في أذنيّ زوجي ... –ألم أستعذ يومًا من اعتقالاتي في الشتاء... كل اعتقالاتي في الشتاء... – أتراهم قد أتوا لك أم لي ؟! – أم للاثنين!! قلبوا كل ما في البيت...محّصوا المكتبة وما فيها وجاسوا خلال غرف البيت الواحدة تلو الأخرى...ولم يسلم المطبخ ولا الحمامات..."[١٨]. تفصح الساردة بحديثها –الذي تراوح بين ضميرالغائب وضميرالمتكلم الطريقة الهمجية والوحشية التي تم فيها اعتقالها من بين أسرتها وعلى مرأى طفلتها الصغيرة عائشة وإرهابها بتلك الأسلحة المخيفة التي تكشف الوجه الحقيقي للسجان، الذي لايملك في تعامله هذا، أدنى قيمة للإنسانية.

---

(١٦) الحموز، عايد:الصلابة النفسية وعلاقاتها ببعض اساليب التعذيب الإسرائيلية ضد الأسرى الفلسطينيين في محافظة الخليل، مؤتمر الأقصى، جامعة القدس المفتوحة،غزة ،فلسطين،٢٠١٣، ص٣.

(١٧) وليد الهودلي ، الشعاع القادم من الجنوب، (فلسطين: مركز يافا للنشر والتوزيع، ط٣، ٢٠٠٣)ص ١٧٨.

(١٨) وليد الهودلي ، أمهات في مدافن الأحياء، (فلسطين: مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة،٢٠١٠) ، ص ١٠.

وفي رواية (هكذا أصبح جاسوسًا) أشار الهودلي إلى الطريقة العنيفة التي تم فيها اعتقاله فيقول:"سلخوني عن بيتي بعد أن عاثوا به فسادًا ،رموا بي في قاع ناقلة حديدية صماء، وانطلق موكبهم الجنائزي إلى حيث السجن والاعتقال من جديد رحلة سئمتها وسئمتني حيث توالت عليّ اعتقالاتهم وطالتني مرات عديدة"[١٩] . نجد أن الكاتب هنا لعب دور السارد والمؤلف في نقل الصورة الذاتية لاعتقاله، فالمعاناة التي تعرض لها الكاتب السجين طوال عمره أسعفتها موهبتة الفذة، فجاء تحدي الكاتب للسجان سريعًا ومعبرًا عن تجربته وتجربة زملائه. ولعل الصورة التي يرسمها الكاتب لتجربته وتجربة زملائه الأسرى تقدم إدانة شاملة للعدو ومخالفاته التي تطول حتى حرية الكلمة والتعبير.

وقد يعمد المحتل إلى اعتقال أحد أقارب السجين محاولة لتحطيم إصراره والعصف بكيانه، كما جاء في هذا المشهد السردي من (رواية ستائر العتمة):"ماذا رأى عامر في هذه البرهة؟ زوجته، وبين يديها طفلة، تجلس قبالة "شلومو" الذي بدوره جلس كأنه يحقق معها. صاح عامر مسمعًا زوجته :

- لا تخافي.. أنا بخير."[٢٠]

وبعد عملية الاعتقال تلك، يدخل السجين في معاناة التحقيقات المتكررة، وذلك للكشف عن نقاط الضعف لديه والتركيز عليها، من ثم كسر إرادته، ومقاومته، بغرض الضغط والتشويش على تفكيره للوصول إلى خيط الدليل الذي يدينه، ليقدم اعترافه؛ لذا تعد مرحلة التحقيق من أصعب المراحل التي يمرها السجين؛ لأنها ترتبط بالتعذيب النفسي والتعذيب الجسدي على حد سواء.[٢١] كما يظهر في المقطع السردي الآتي:"سبعون يومًا من الضغط النفسي وجولات التحقيق القاسية، لم يتركوا أسلوبًا من أساليبهم الخبيثة إلا وأشهروه في وجهه، بلغ حافة البوح عدة مرات لولا إيمان رسخ في قلبه وعزيمة لا تلين اعتاد عليها، حملها في صدره من حبساته السابقة، لم ينبس لهم ببنت شفه"[٢٢]

---

(١٩) وليد الهودلي، هكذا أصبح جاسوساً ، (مركز بيت المقدس للأدب، ٢٠١٨) ، ص ١٠.

(٢٠) وليد الهودلي، ستائر العتمة ج١(فلسطين: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ٢٠٠٣) ، ص ٨٣.

(٢١) يوسف حطيني، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، (١٩٩٩) ، ص ٨٧.

(٢٢) الهودلي، (هكذا ...)، مصدر سابق، ص ١٣١.

إذا كانت رواية التجربة الاعتقالية قد قدمت حالات الاعتقال وما يتبعها من تحقيقات مستمرة، فإنها عرضت وصفًا دقيقًا لما يحدث داخل السجون من تعذيب وإذلال للأسرى، يفوق الخيال، ولا يمكن أن يوصف بأدنى حقوق الإنسانية، حيث سلطت الروايات قيد الدراسة الضوء على أساليب التعذيب من قلب الحدث وساجلتها بثوبها الواقعي من خلال عرض صور وحشية لأدوات التعذيب وكيفية استخدامها، ومن هذه الصور:

نقل السجين:

وصف السارد الشاهد (إسماعيل) وهو بطل رواية (الشعاع القادم من الجنوب) عملية نقله من المشفى إلى سجن "الجلمة"، وما رافقها من تعذيب وإذلال: "وصلت آلآمي في ظلام الليل مركز"الجلمة"... دحرجوني من عربتي... فتح باب وآخرإلى أن وصلت إلى بوابة حديدية تقرأ على صدرها الموت... ثقيلة، محصنة، سوداء، وضع على رأسي كيسًا نتنًا . خنقت رائحته أنفاسي.. كأنه قد سكنه العفن سنوات عديدة ..."[٢٣] ويظهرمن طريقة السرد تلك الحالة النفسية للسارد، فالسارد يروي عن رحلة عذاب وتجربة قاسية. وإذا كانت هذه الطريقة القاسية التي تم فيها نقل (إسماعيل) بطل رواية (الشعاع القادم من الجنوب)، فإن حال المعتقل(سعيد بن الوكيل) بطل رواية ستائر العتمة لم تكن أحسن من ذلك، حيث يصف لنا السارد عملية نقله بهذا المشهد السردي المؤلم: " أناخت ناقلة العذاب أمام "المسكوبية". تلك البقعة السوداء التي يعرفها سعيد جيدًا .فتحوا عليه الباب. ألقوا على عينيه عصابة سوداء كأنها قطعة من سواد نفوسهم، شدوه من قيد يديه خارج الناقلة".[٢٤] يحضر السارد مشهد عملية نقل السجين إلى السجن مشمئزا من الممارسات القمعية التي يمارسها السجّان في طريقة نقل الأسرى بهدف إذلالهم وتعذيبهم بطريقة غير إنسانية.

التعذيب بالتعذيب أو(التعذيب بالآخرين):

يعمد السجان منذ البداية إلى ترهيب السجين وتعذيبه بمشاهدة زملائه المعتقلين أثناء تعذيبهم وسماع أصواتهم المتألمة في محاولة للتأثير على معنوياته، وقد كان لهذا النوع أمثلة متعددة في رواية التجربة الاعتقالية، منها ما جاء على لسان السارد إسماعيل

([٢٣]) الهودلي ، (الشعاع...) مصدر سابق، ص. ٩٥.

([٢٤]) وليد الهودلي ، ستائر العتمة ج٢، (فلسطين: مركز بيت المقدس للأدب،ط٢، ٢٠١٨)، ص. ١٤.

:"سمعت حشرجة المشبوحين حولي... أجساد متناثرة على الكراسي في مكان لا أعرف طوله من عرضه... الحراس يجوبون ممر الشبح..ما يلفظ المشبوح من قول أو نحنحه إلا وذراع من أذرعة الحراس الطويلة تطاله بضربة تخسف رأسه في أذرع كتفيه.. لا تسمع إلا كلمات منكوبة تطلب الذهاب إلى قضاء الحاجة "شروتيم يا شويش"* – بعد إخمادها عدة مرات، قد يستجيب الشاويش فيجر المختقن خلفه كما تجر الدابة نحو الدورة، يلقي الكيس عن رأسه على أرض الدورة العفنة، يفك قيد إحدى يديه ثم يطلق له حرية التبول ، لحظات ثم يجره إلى مستقره على عرش التعذيب." [٢٥] ويأتي الهدف الأسمى من وراء هذا النوع من التعذيب، في كسر إرادة المناضل واستباحة جسده ونقله من وضعية إلى وضعية أصعب من خلال مشاهدته لزملائه المعتقلين. وما إن يدخل السجين السجن حتى يصبح التعذيب طقسًا ملازمًا وجزءًا من حياته اليومية، وهذا ما جعل عامر بطل رواية (ستائر العتمة) يستغرب من تأخر التعذيب عنه، وحول ذلك يقول السارد :"وكان مما يؤرق عامر لدرجة كبيرة، هو غياب الشبح والتعذيب."[٢٦] فعامر يدرك تمامًا أن الجسد والروح هما من أهم علامات الإنسانية التي يسعى السجان إلى الوصول إلى السجين عن طريق اختراقها[٢٧].

التعذيب بالجنس:

وقد يتفنن السجان في ابتداع وسائل جديدة للتعذيب، تنعت بأنها مقززة تشمئز لها الأنفس لقسوتها بحد وصف الكاتب لها :"كان الأحرى أن تكتب بالدم على جلد بشري لما فيها من قسوة وفاشية" .[٢٨] ومن هذه الوسائل ما ورد في القصة الرابعة من (رواية هكذا أصبح جاسوسًا)، والتي تعد وثيقة إدانة تدين المحتل وجرائمه، وفيها يروي السارد السجين (أحمد سادات) قصة تعذيبه بهذه الطريقة فيقول: "أحضرأحدهم مسحوق الفازلين وكان المحقق الرئيس يتفنن في عبارات عهر يخجل المرء السوي من

---

* كلمة " **شروتيم**" في اللغة العبرية تعني: حمام، أي أن السجين يطلب السماح من السجان لاستخدام الحمام.

([٢٥]) الهودلي، (ستائر٢...)، مصدر سابق، ص ص ٩٦ ، ٩٧.

([٢٦]) الهودلي ، (ستائر ج١...) مصدر سابق، ص . ٣٤.

([٢٧]) سعيد الوكيل، " السيميولوجيا الهرمنيوطيقية في التأمل النقدي" ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الخامس للنقد الأدبي (القاهرة،: ديسمبر، ٢٠١٠) ، ص . ٢٨ .

([٢٨]) الهودلي ، (هكذا ...) مصدر سابق، ص . ٤٣ .

ترك العنان لقلمه أن يعبر عنها: سنفتح الأماكن الحساسة في جسمك، لن نترك فتحة إلا وسنختم عليها ب.. وكان أحدهم يسحل بنطاله متأهبًا لممارسة الجريمة، ثبتوا يدي وقدمي من قبل حارسين، حارس أمسك ذراعي بقبضته الحديدية وجلس الآخر على قدمي بعد أن قلبوني على وجهي كنت على يقين بأن نذالتهم لم تصل إلى نهاية المشهد، وكذلك إن ما في صدري أعلى وأجل من جسدي وحياتي كلها"،[٢٩] أما نتيجة هذا النوع من التعذيب فهو الفشل على حد تعبير السارد: "باءت مسرحيتهم بالفشل، لم تجد لها جمهورًا، ولم تجزع لها أي خلية من خلايا جسدي".[٣٠] إن تعذيب السجين بتلك الطريقة يعد من أحقر أساليب التعذيب التي يلجأ إليها المحققون، بهدف "كسر نفسية السجين الفلسطيني المقاوم وتحطيمها، من الناحية الجسدية والنفسية والمعنوية، وإفراغه من محتواه النضالي، ليخرج، وإن خرج، إنسانًا آخر لا يهتدي ولا يقوى على مواصلة كفاحه المشروع"[٣١] فالسجان يعمد من خلال هذه الطريقة إلى زعزعة إيمان السجين بالقيم؛ ليسهل عليه كسر صلابته الوطنية والأخلاقية.

يبتكر المحققون في تعاملهم مع السجناء وسائل جديدة لا تقل بشاعة عن الوسائل السابقة، إذ يصف السارد الشاهد والمشارك للأحداث الروائية التعذيب الجسدي الذي تلقاه فأطلق عليه اسمًا هو"شبحة الموزة": "أخذوا يسحبون رأسي من الخلف باتجاه قدميّ فيتقّوس الظهر مشكلًا ما يشبه الموزة، ثم أخذ يضرب على ظهري بقبضة يده بكل ما أوتي من قوة، لم أتمالك نفسي حتى ملأت المكان صراخًا ،كان الألم في فقرات الظهر يتعاظم ويدفعني دفعًا كي أفقد وعيي، وإذا عاد لي وعيي عادوا دون توقف، في المرة العاشرة زادوا من درجة تقوّس ظهري فسمعت فقرة من فقرات ظهري وهي تكسر، فأوقفوا التعذيب وجروني إلى الزنزانة جرًا ".[٣٢]إن حديث السارد عن تلك الطريقة في التعذيب، التي تصل بالسجين حدّ فقدان الوعي أكثر من مرة، هو إشارة من السارد إلى أن السجّان أراد قتل السجين أكثر من موافقته على الاعتراف.

([٢٩]) الهودلي، (هكذا ...)، مصدر سابق ص ٤٥٠.

([٣٠]) المصدر نفسه، ص . ٤٥.

([٣١]) مروان البرغوثي وآخرون، ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي، (رام الله: شركة مؤسسة الأيام، ٢٠١٠) ، ص ١٦١. .

([٣٢]) الهودلي، (هكذا...) مصدر سابق، ص . ٥١ .

وفي رواية (ستائر العتمة) يطلب المحقق من (سعيد بن الوكيل) أن يخلع جميع ملابسه كنوع من التسلط وفقدان الخصوصية،

وكأن هذا الجسد لم يعد ملكًا لصاحبه كي يحافظ عليه، وإنما ملك للسجّان يفعل به ما يشاء:

-"اخلع كل ملابسك". "كيوم ولدتك أمك".

- لا، هذا غير معقول. قال سعيد مستنكرًا .

- اختر بنفسك. إما أن تخلعها باحترام أو نمزّقها بغير احترام".[٣٣]

وفي سبيل إثارة السجين والإطاحة به، عمد السجّان إلى تسليط زبانية السجن عليه، بهدف إغرائه وتسجيل مواقف غير أخلاقية يمكن للسجّان أن يستغلها فيما بعد في عملية إسقاط السجين للحصول على اعترافات مهمة تحت تأثير هذا النوع من التعذيب، وهذا ما حدث مع عامر بطل رواية (ستائر العتمة)، حيث يقول السارد: "ثم وجدها عامر بعد أن رعت طويلًا تقرب كرسيّها من كرسيّه، ويتخافت صوتها حتى يصبح همسًا ..كانت تريد الايحاء بأجواء خاصة، تذكره بالجنس الآخر ونفحات الرغبة الجنسية.. تريد أن تضخ أمواجًا رخية، ترتعش لها وجدان الرجولة في حناياه".[٣٤]

إن عرض السارد لتلك المشاهد الصعبة، يفسر للقارئ تسلط السجّان على جسد السجين كنقطة ضعف للإنسان، يقبض عليها الجلاد محاولًا السيطرة على السجين والضغط عليه من خلال نقطة ضعفه هذه، لتصبح علاقة السجّان مع السجين كما صورها السارد من منطلق جسده الذي ينال نصيبًا وافرًا من عذاب السجان، فهو لعبة السجّان والأداة التي يستخدمها لممارسة سطوته وجبروته.[٣٥]

تعذيب السجين المصاب (التعذيب بالإصابة):

([٣٣]) الهودلي ، (ستائر ج٢...) مصدر سابق، ص ١٤٠ .

([٣٤]) المصدر نفسه، ص ١٣٤٠.

([٣٥]) حجازي، مرجع سابق، ص ١٣٤٠.

تزداد معاناة السجين المصاب؛ لأن تعذيب السجّان له يتركز على مكان الإصابة، وهذا ما حدث مع البطل (إسماعيل) الذي تعرض إلى إطلاق نار أصاب قدمه إصابة شديدة، فاستغل المحقق هذه الإصابة، حيث سلط أهدافه عليها وبوحشية تامة ضاربًا كل القوانين والأعراف الدولية التي توجب معاملة الأسير الجريح معاملة إنسانية، ويروي لنا السارد (إسماعيل) التعذيب الذي تعرض إليه من قبل المحقق وتجربته القاسية في ذلك: "نظر صوب ساقي.. ففتح حاجبيه ثم ضرب بقدمه ساقي الممدودة أمامي، اللعين ابن اللعين عرف من أين تؤكل الكتف يا إسماعيل، لجأت إلى حمى أرحم الراحمين.الملجأ الآمن الذي تعودت اللجوء إليه في حالات الطوارئ.. أعلنت النفير..وجدت قلبي ينبض مع الله وجسدي يتضور ألما .أذوب هذه بتلك غبت عن هذا المجنون الحاقد الذي يسمي نفسه ظلمًا وجورًا إنسانًا ".[٣٦] فالسجّان هنا حاول الوصول إلى السجين من خلال نقطة ضعفه المتمثلة في إصابته دون أن يعرف مدى الإيمان العميق الذي يتمتع به إسماعيل، ويدرك تمامًا إذا كانت النفس عامرة بالإيمان مقتنعة واثقة من دورها في الحياة، فإن سحق الجسد يصبح مقدمة لسحق الروح وتشويه معالمها وحرفها عن مسارها الإيجابي. ولذا كانت آراء "أبو قراط" نقطة مهمة في تفسير الاضطرابات النفسية، حيث اعتبر أن أسباب الاضطراب النفسي ليست دائمًا خارج الجسم، بل إن العوامل الجسمية كثيرًا ما تكون السبب وراءهذه الاضطرابات، التي يسعى السجانً مزودًا بآلة البطش التي سخرها لحصار المقاتل الفلسطيني واختراق روحه وتمزيقها، ومن ثم تركه جسدًا بلا قيمة.[٣٧]

وعندما يفشل السجّان في اختراق جسد السجين المصاب، يلجأ إلى أسلوب تهديده بالقتل والموت، كطريقة يتداخل فيها التعذيب النفسي بالتعذيب الجسدي في أغلب الأحيان، وهذا ما أظهره رد السارد المشارك على سجانه:"– تهددني بالموت؟ أتدري ما هي أعظم أمنية في حياتي؟ أن أموت في سبيل الله..". وقد كانت ثيمة الموت من أهم الثيمات السردية التي يصطدم البطل بها، حيث إن تهديد السجان للسجين بالموت ثيمة طاغية في رواية التجربة الاعتقالية .

التعذيب النفسي:

لم يكتف الجلاد بتعذيب السجين جسديًا ، بل كان يمارس ضده ضغوطات نفسية واجتماعية كانت أشد قسوة من التعذيب الجسدي، وهذا ما دفع (عامر) بطل رواية (ستائر العتمة) أن يتمنى عودة التعذيب الجسدي بدلًا من التعذيب النفسي :" تذكر يا

([٣٦]) الهودلي، (الشعاع ...) مصدر سابق ، ص . ١٠٧ .

([٣٧]) فايزأبو شمالة، السجن في الشعر الفلسطيني، (فلسطين : المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي ، ٢٠٠٣) ، ص .٣١ .

عامر، عندما كانوا يتناوبون عليك بركلاتهم، ووخزاتهم التي كانت تطرق جدران رأسك بعنف تارة، وتارة أخرى تقض مضاجع عظام صدرك، الشبح العظيم الذي جعل منك هيكلًا عظميًا متهالكًا .. كانت مؤخرتك تنزف دمًا ، وكانت يداك وكتفاك تتقطع ألمًا من القيد، الذي يحكمون شدّه بكل ما أوتوا من حقد، أنا لا أنسى تلك الأيام، ولا أستبعد أن يعيدوا سيرتها مرة أخرى. إنها على مساوئها أرحم من هذا الكلام الممل. وهذه السماجة ثقيلة البرودة وعفنة الرائحة.. يغرقونني هذه الأيام بمستنقع قذر مما تلقيه أفواههم.. أعجب منهم ألا يملون أم أنهم أدمنوا، وهذا الذي يدعي الدماثة يصب كل برودته في أذني.. ليتهم يعودون للأسلوب القديم".[٣٨] يتحدث السارد من خلال هذا النص السردي عن أساليب التعذيب الجسدية التي كان قد تعرض لها في حبسته الأولى وأساليب التعذيب النفسي التي يتعرض لها حاليًا ، حيث يفضل السارد الأساليب الأولى على الثانية؛ لأن الأولى تظهر انهزام السجان وفشله أمام أجساد لا تركع إلا لله سبحانه وتعالى .

ومن أساليب التعذيب النفسي أسلوب إطلاق الالفاظ والعبارات البذيئة التي لا تتناسب مع أعرافنا وعاداتنا، ويظهر الحوار الآتي كيف عمد المحقق على استفزاز عامر من خلال إطلاق كلمات وعبارات إباحية تخل بالأعراف والعادات والتقاليد المعهودة:

"– نحن نعرف عنك كل شيء..ونعرف كيف تنام مع زوجتك..

– ورد عامر بغضب أشد.

– اخرس أنت لا تعرف شيئًا ..

– أتحداك إن كان عندك شيء لانعرفه..

— أنا أحذرك إياك أن تقترب من العرض.. لم يبق لنا ما نستميت من أجله غير العرض.."[٣٩]

[٣٨]) الهودلي ، (ستائر ج١...)، مصدر سابق، ص . ٥١ .

([٣٩]) الهودلي، (ستائر٢ ...) مصدر سابق، ص٥٨.

يوهم المحقق السجين بأنه يعرف عنه كل شيء حتى أدق التفاصيل في حياته، التي يستخدم فيها ألفاظًا تخدش الحياء لدى السجين فيبادر بالرد على المحقق نافرًا منها، ولعل ترك الكاتب لتلك الفراغات(..) جاء مقصودًا ومتعمدًا ، فهناك ألفاظ تترفع عنها الذائقة الأدبية، ولا يمكن التعبيرعنها والتعامل معها إلا من خلال لغة الصمت التي سوف يتعرض لها البحث لاحقًا .

ويأتي استخدام "الصور المدبلجة" شكلًا من أشكال التعذيب النفسي، حيث يعمد السجّان إلى استخدامها وعرضها أمام أعين السجين، والتي كان يصبو من ورائها إلى حرق مشاعر السجين، وإثارة أعصابه وقهره ودفعه إلى الاعتراف . فهناك مشاهد مؤلمة وقاسية قدمتها (رواية هكذا أصبح جاسوسًا) تمثل قذارة المحتل في سلب الاعترافات، ومن هذه المشاهد ما عرضه المحقق من صور لوالدة السجين (أحمد) للضغط عليه حتى يقدم اعترافه، كما جاء على لسان السارد في هذا الحوار:

"أنت تحلم، عايش في أوهام، أدلتنا قاطعة، طال الزمن أم قصر ستعترف.

وسحب من جيبه صورة:

.خذ شوف أمك..

وقعت الصورة كالصاعقة على أحمد، رآها وهي تضرب بكلتي يديها على رأسها، فزع من نعاسه وكأن

أفعى كوبرا قد لدغته وانطلق لسانه صارخًا :

.يا سادي يا مجرم، أبلغ الإجرام بك هذا الحد، ماذا قلت لها؟ ماذا فعلت حتى تلتقط هذه الصورة."[٤٠]

كما أن تذكير المعتقل وتهديده بالأهل وما يمكن أن يحدث معهم يمثل تعذيبًا إضافيًا ، وربما أكثر قسوة على السجين، وقد حفلت رواية التجربة الاعتقالية بصور عديدة لهذا الأسلوب، ومنها الخطاب الذي وجهه المحقق للمعتقل أحمد في رواية(هكذا أصبح جاسوسًا) مهددًا :- "خطيبتك وقعت بين أيدينا، تنتظر حكمًا طويلًا ، بعد خروجك من السجن عندما تنهي فترة حكمك الطويلة ستضطر لانتظارها طويلًا ، عشر سنوات مثلًا "[٤١] وفي كثير من الأحيان يعمد المحقق إلى تحريك مشاعر

([٤٠]) الهودلي ،(هكذا ...)، مصدر سابق ، ص ١٢٢. .

([٤١]) الهودلي ، (ستائر ج٢...)، مصدر سابق، ص . ٤٨.

السجين وعصرها بطريقة خبيثة، حتى يشعر السجين بعقدة الذنب تجاه الأهل والأبناء، فيشل تفكيره بنفسه، كما جاء في رواية (ستائر العتمة) في جزءها الأول: "أتريد أن تتابع تربية ولدك الوحيد يا عامر من وراء الشبك، زيارة كل أسبوعين، زواج بالمراسلة، وأبوّة بالمراسلة. كل معاني الحياة تقطّعها أسوار السجن العالية إربًا .."[٤٢] وتأتي الصورة في رواية (ستائر العتمة) في جزئها الثاني مشابهة حين يعرض المحقق صورة لابنة (سعيد بن الوكيل) وكأن العادة التي ينهجها السجّان في تحقيقه هي هي الماثلة والمتجذرة على حد تعبير السارد:

"– يا سلام! ما هذه الطفولة البريئة؟! إنها الأميرة فاطمة. ابنتك جميلة يا سعيد.

وأخذ يقلب الصور أمام سعيد. أثارت كل عواصف ذكرياته، وحركت أمواج الحنين لطفلته الصغيره. هؤلاء قراصنة الطفولة. يريدون استغلال هذه العاطفة. وقبل قليل استغربوا أن أصفهم بلا قلوب."[٤٣] وتعليقًا على ما سبق، نجد أن السارد الذي هو قناع المؤلف، يسرد أحداثه من خلال تدخلاته الواضحة التي يعلن فيها عن مواقفه تجاه الأحداث، وليس هذا فحسب، بل نجده يدخل إلى عالم السجن، لرصد كل الجوانب المؤلمة التي تشعر القارئ أنه أمام أحداث غير عادية، نسجتها تلك الظروف القاسية "ظروف الاحتلال" التي عانى ولا يزال يعاني منها السجين الفلسطيني. فتعذيب السجين وإذلاله وتجريحه هي اللغة الوحيدة التي يستخدمها السجان في قاموسه اللغوي . ولم يكتف الاحتلال باعتقال الرجل وتعذيبه بل عمد إلى اعتقال المرأة وتعذيبها وإذلالها، وقد تناولت رواية التجربة الاعتقالية قيد الدراسة هذا الموضوع الهام، حيث إن للمرأة – كما سبق الحديث– دورًا مهمًا ومساويًا للرجل في مسؤولياته. لذا عمدت قوات الاحتلال إلى ممارسة كافة أشكال التعذيب النفسي والجسدي التي يتعرض لها الرجل، على جسد المرأة، رغم خصوصيتها كأنثى تمتلك جسدًا أضعف بكثير من جسد الرجل.

من هنا حفلت الروايات قيد الدراسة بإبراز جانب التجربة الاعتقالية النسائية والمعاناة التي لحقت بحياة المرأة في داخل السجن. ومن الأساليب التي استخدمها السجان في تعذيب المرأة داخل السجن عمليات التفتيش المهينة والمستمرة باستخدام أدوات التعذيب، ففي رواية (أمهات في مدافن الأحياء) تروي الساردة المعاناة التي تتعرض لها المعتقلات داخل سجون القهر والتعذيب، فتقول :" تدخل الغرفة مجموعة خليطة من السجّانين والسجّانات مدججين بكل أدوات.. بردعة عل ظهر كل واحد تحوي هراوة

---

(٤٢) المصدر نفسه ،ص٦٣.

(٤٣) الهودلي، (ستائر٢ ...)، مصدر سابق، ص ١٢٦.

وأجهزة اتصال وأنبوبة غاز.. تقف البنات وتجري عملية العدّ المهين"[٤٤]ولا يختلف تعذيب المرأة وإذلالها عن تعذيب الرجل، فسهام بطلة رواية (أمهات في مدافن الأحياء) تتعرض إلى التعذيب الوحشي بنوعيه الجسدي والنفسي، فلم تكن معاملتها بأفضل حال من معاملة الرجل، وتظهرلنا الرواية مشاهد صعبة وعنيفة في تعامل السجّان مع المرأة بالرغم من خصوصيتها، ومن هذه المشاهد المشهد الذي تصور فيه الساردة المشاركة العنف والمعاملة غير الإنسانية التي تعرضت لهما :" مكثت خمسين يومًا في زنازين"المسكوبية" التي كانت مسلخًا بكل ما تعنيه الكلمة... يدخل المجندون لضربي ويداي مكبلتان إلى الخلف... جولة من الضرب والشتم وتمزيق الشعر ثم عودة إلى حيث التهديد والوعيد من قبل ضباط المخابرات الذين لم يروا فيّ إلا قاتلة مصّاصة للدماء ...كانوا كتلًا بشرية صماء لا تعرف إلا إنشاب أنيابها في فريستها وأبشع طرق تحقيق الافتراس لما في جوف الضحية... ماكينة من المكر والخديعة والتعذيب... وكانت النتيجة بعد هذه الأيام العصيبة محكمة صورية حكمت عليّ بالسجن خمس عشرة سنة..."[٤٥]. يشير السرد إلى أن تعذيب المرأة الأسيرة لم يختلف كثيرًا عما ذكرناه من تعذيب الرجل، فالسجان في تعذيبه لا يفرق بين أنّ هذا الجسد لامرأة أم لرجل، فطموحه يصل إلى انتزاع موافقتها على الاعتراف بأي وسيلة وتحت ضغط الآلآم المبرحة.

ولعل من أبرز الوسائل التي استخدمها السجان في تعذيب المرأة وإذلالها وسيلة العزل*[٤٦]، حيث تزداد معاناة المرأة السجينة عندما تكون نزيلة زنزانة انفرادية ضيقة وعديمة التهوية، فهي تصبح في طوق من العزلة الجسدية والعزلة العاطفية، حيث إن انتقال السجين من الحياة "العامة" التي ألفها ضمن الفضاء الآهل نسبيًا داخل السجن إلى الزنزانة الإنفرادية سيؤثر بطريقة سلبية على معنويات السجين ومقدرته على المواجهة، فالزنزانة بالنسبة للسجّان هي المسرح العقابي الثانوي الذي يتم فيه اضطهاد السجين وتجاهله. من هنا تصف الساردة لنا مشاعرها داخل الزنزانة: " هاج الدمع وفاض ولم يعد هناك من أكابر أمامه فأخفي دموعي".[٤٧]إن هذه العزلة التأديبية المفروضة على السجينة داخل الزنزانة هي التي ستعمل على إفشاء الشعور بالعجز والإحباط

([٤٤]) الهودلي، (أمهات ...) مصدر سابق ، ص . ١٦ .

([٤٥]) الهودلي (أمهات ...)، مصدر سابق، ص . ١٦.

([٤٦]) تعد عقوبة العزل من أقسى أنواع العقوبات التي يلجأ إليها السجان؛ إذ يضع السجان السجين في زنازين معتمة ضيقة لفترات طويلة من الزمن، يشعر من خلالها السجين بالذل والحرمان والتهميش والعزلة عن زملائه المعتقلين. مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، موسوعة تجارب الأسرى الفلسطينيين والعرب، (فلسطين: القدس، ٢٠١٤)، ص .٥٧.

([٤٧]) الهودلي (أمهات ...) مصدر سابق، ص .٦٠ .

وإشاعة مناخ تراجيدي يكون أكثر شدة من فضاء السجن العادي.[٤٨] فمجرد أن تختلي السجينة بنفسها داخل هذا المكان الموحش حتى تتفتح جميع العذابات والجروح الحزينة التي خلفتها وراءها. فالسجينة توضع في مواجهة عذاب هو عذاب الزنزانة من الرطوبة إلى العفن إلى الرائحة الكريهة، فإذا كان السجن هو مكان العقوبة، فإن الزنزانة هي مكان معاقبة المعاقبين[٤٩] .

وقد غصّت الروايات قيد الدراسة بصور عزل السجين التي تعد من أقسى أنواع التعذيب النفسي الذي تنفذه مؤسسة قمع السجون، وتهدف من ورائها تحطيم التركيبة الفسيفسائية للتكوين النفسي للسجين، ثم إعادة صياغتها كما هو مطلوب أو كما يريد لها السجّان أن تكون.[٥٠] وهذا له أبعاد خطيرة على الصحة النفسية كما يشير المقطع السردي الآتي :" ارتج بدني ثم ألقيت به على رفيقة دربي في هذه الخلوة الصّماء..فرشة ذات روائح نتنة خارقة لأعماق الصدور.."[٥١]ومن أكثر المشاهد غرابة، هي اللحظة التي تخرج منها السجينة من هذه الزنزانة لتنتقل إلى السجن العادي، حيث الاستقبال الحافل والفرحة الكبرى من قبل السجينات، وتصف الساردة مشهد الاحتفال بخروجها من الزنزانة فتقول:" جررت نفسي برفقة سجّانتين إلى حيث مقري هناك بين الأسيرات ... ما إن وصلت مشارف القسم والتقطن مشهد قدومي حتى انطلقت الزغاريد وصيحات الله أكبر ولله الحمد. نسيت آلآمي.. فجأة قوي جسدي ودبّت فيه الحياة، كنت مثل سيّارة مقطوعة البنزين فوصل محركها البنزين"[٥٢]. ويدل حديث الساردة هذا على مدى وحشية مكان العزل الذي تلجأ إليه سلطات الاحتلال لتحرم السجين من أبسط حقوقه الإنسانية.[٥٣]

وتتحدث الرواية قيد الدراسة عن العذاب الذي تعيشه المرأة الأم التي تحاول زيارة ابنها السجين، فيوم زيارة الأهل للسجين هو يوم طويل وشاق، وهو موعد مع المعاناة والمرارة، من هنا تصف الساردة مشوار زيارة أم نضال لابنها الأسير نضال بهذا المقطع السردي الطويل :"ننتظر وجهًا لوجه أمام رمل صحراء السبع ..وكأننا بهائم قد ضل عنها راعيها.. يفطنون لنا بعد عدة ساعات..

---

(٤٨) بحراوي، مرجع سابق ،ص ٦٨. .

(٤٩) Walash, Enda and Steve Mcgueen . 2008 .Hunger: 1981 Irish Hunger Strike .

(٥٠) حمدونة، مرجع سابق ، ص ص . ١٣٨، ١٣٩ .

(٥١) الهودلي ، (أمهات...) مصدر سابق ، ص ٥٢.

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٥٧.

(٥٣) مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، مرجع سابق، ص . ٥٧.

ينادون الأسماء فوجًا بعد فوج، وما بين الواحد والآخر ما يزيد عن ساعة ونصف ، ندخل أول باب كهربائي .. ندخل فم الغار ثم يغلق .. ننزل حوالي ثلاثين درجة تحت الأرض، ثم نسير نفقًا طويلًا في عتمة أضواء خافتة.. نرتقي بعد ذلك ثلاثين درجة.. صرنا على سطح الأرض..نسير بعد ذلك في ممر طويل مغلق الجانبين بصفائح من حديد، لا نرى شيئًا عن اليمين أو الشمال..نصل بابًا بعد السير ما يزيد عن نصف ساعة تحت الأرض، وبعدها يفتح الباب لنجد أنفسنا نخضع لعملية تفتيش تجوس خلال أجسادنا المنهكة بكل وقاحة ومبالغة..نسير ونتحمل هذا الذل كي نرى نور عيوننا القابعة في هذه الغابة الكافرة بكل ما له علاقة بعالم البشر".[٥٤] تظهر الوحدة السردية السابقة والطويلة نسبيًا كطول الزيارة التي يستعملها الاحتلال كوسيلة من وسائل الضغط على السجين وأهله، حيث تقطع الأم مسافة طويلة وشاقة مصحوبة بساعات الانتظار الطويلة والمذلة حتى تحظى بزيارة لا تزيد عن نصف ساعة، ويأتي وصف الساردة الدقيق لهذه الزيارة التي تعد حربًا نفسية ومرحلة من مراحل الإذلال وحرق الأعصاب، معبرة من خلالها عن صدق التجربة وواقعيتها وكأن الاحتلال يتعمد بهذا الإذلال العقاب الجماعي للأسرى وذويهم . من هنا وظفت الساردة كل حواسها لالتقاط صور تصف هذه الرحلة الشاقة التي فقدت آدميتها، وتركت انعكاسات مأساوية على الساردة والمتلقي على حد سواء.

أما مشوار المحكمة وزيف المحاكمة العسكرية فهي تعذيب ومعاناة تضاف إلى معاناة السجين يفتعلها السجّان بهدف إذلال الأسرى وتعذيبهم وجرهم مثل القطيع، كما يبين خطاب الساردة: " بعد نصف ساعة من هذه الوقفة فتحت الزبانية الباب .. نزلت مع قيد رجلي ويدي سحبت شرطية عائشة وأنزلتها إلى الأرض ... وعندما أغلقوا الباب الثقيل، ضرب أطراف أصابعها .. صرخت بكل آلآمها .. غامت عيناها وضمر وجهها في آلآم فظيعة .. . كان أشد ما يؤلمني في هذا المكان هو عدم وجود أية إمكانية لقضاء الحاجة .."[٥٥] ترسم الساردة من خلال هذا المقطع السردي صورة قاتمة السواد للمحكمة و لمن فيها إذ تجردهم من إنسانيتهم، حتى تستنفر مشاعر القارئ تجاه طفلة بريئة ذنبها الوحيد أن والدتها سجينة.

([٥٤]) الهودلي، (أمهات ...) مصدر سابق ، ص ٦٤.

([٥٥]) الهودلي، (أمهات ....) مصدر سابق، ص . ٨٩ .

الحرمان:

ويعرف الحرمان بأنه العجز عن طريق تحقيق رغبات معينة وتلبيتها، وعدم إشباع الرغبات الأولية الفسيولوجية، والتي من أهمها الطعام؛ ما يؤدي إلى فقدان الفرد لحاجة من حاجاته الأساسية، وقد تكون هذه الحاجة عاطفية أو اجتماعية أو ثقافية أو مادية ...الخ.[٥٦]

إن "السجن حرمان بالمفهوم الواسع للحرمان. ففي الحياة العادية بعيدًا عن الأسوار يتعرض الإنسان في حياته إلى نقص ما، وإلى عوائق تمنعه من تحصيل ما يحتاجه أو يرغب به، قد يكون هذا المنع والإعاقه زمنية محدودة. بينما في السجن يكون الحرمان مطلقًا وغير محدود الزمان".[٥٧] والحرمان نوعان :مادي ومعنوي، وقد يكون الحرمان المعنوي أصعب بكثير من الحرمان المادي .[٥٨] ظهرت ثيمة الحرمان (حرمان السجين) في الروايات قيد الدراسة كثيمة أساسية من ثيم السرد، والتي يسعى السجّان من خلال سياسته الإجرامية إيصال السجين إليها وبشتى الطرق، ومن أبرز أنواع الحرمان التي كانت تمارس ضد السجين: الحرمان من الأهل، ومعرفة أخبارهم، أو رؤيتهم لفترة زمنية محددة من وراء الشبك، دون أن يتسنى للسجين احتضانهم ومحادثتهم مباشرة، ففي رواية (الشعاع القادم من الجنوب) يصف السارد المشارك لقاء إسماعيل بوالدته أثناء زيارتها له في السجن: "حملت نفسي مع قاسم ونزلت السلم الذي يوصلني إلى غرفة الزيارة.. تفتيشات دقيقة ثم ولجت حيث الأهل ينتظرون ولمحتها غارقة في دموعها .. هجمت عليها.. لم أر الشبك الحاقد إلا وهو يصدني عن أحضان أمي .. لثمت أصابعها التي غرستها في الشبك.. ومن بين الدموع تسللت بعض الكلمات .. حاولت مسك دموعي ولقط أنفاسي ."[٥٩] تعكس الوحدة السردية السابقة الحالة النفسية التي وصل

([٥٦]) أحمد محمد دحلان ، العلاقة بين مشاهدة بعض برامج التلفاز و السلوك العدواني لدى الأطفال في محافظة غزة ، رسالة ماجستير غير منشورة(الجامعة الإسلامية : كلية التربية ، ٢٠٠٢/٢٠٠٣) ، ص٣٢

([٥٧]) أبو شمالة، مرجع سابق، ص ١٤٧.

([٥٨]) المرجع نفسه، ص . ١٤٨.

([٥٩]) الهودلي ، (الشعاع ...) مصدر سابق، ص . ١٩٢.

إليها إسماعيل حيث يسترجع طعم الزيارة المر المليء بالحرمان المطلق، بسبب النقص في إشباع حاجاته الإنسانية في احتضان والدته، فالأم هي من أقوى الشخصيات القريبة المؤثرة في وجدان البطل، حيث نجده يذكّر والدته بزمن الزيارة القصير حتى لا تفلت منه رائحتها:"أمي" ..انتبهي الزيارة نصف ساعة.."[٦٠] وإذا كان إسماعيل بطل رواية (الشعاع القادم من الجنوب) يحظى بزيارة قصيرة لوالدته، فإن (أم النور) إحدى شخصيات رواية (أمهات في مدافن الأحياء) تحرم من زيارة أطفالها الأربعة الذين ما نظرتهم عينها طوال أربع سنوات: " ماذا أقول أنا ولي كما تعلمين ستة أطفال لا يستطيعون مجرد زيارتي .. أربع سنوات يا سهام وأنا مدفونة في قبر الحرمان من فلذات كبدي .."[٦١]. فوقف الزيارات كانت إحدى أهم وسائل الحرمان المعنوي التي عايشها الأسرى في سجون الاحتلال[٦٢].

إذا كان الحرمان المعنوي يتمثل بما ذكر سابقًا ، فإن الحرمان المادي يتجسد في مقومات الحياة الأساسية كالحرمان من قضاء الحاجة، والحرمان من النوم، والحرمان من الطعام، والحرمان من العلاج وغيرها، وأبرز أنواع الحرمان الجسدي التي تطرقت لها رواية التجربة الاعتقالية الحرمان من الطعام.

عزز السجّان جوع السجين بحرمانه من الطعام كحاجة رئيسة للإنسان، ومن القصص الطريفة المؤلمة التي يعرضها السارد في طريقة حصوله على الطعام: " إحدى المرات جاءت الوجبة وأنا نائم .. أسقطوها من فتحة الباب استيقظت من أحلامي على فأرين يلتهمان البيضة المسلوقة وشرائح الخبز وكأنهما يجلسان على كرنيش النيل.."[٦٣] إن استحضار السارد لتلك المشاهد المعانية التي تشير إلى حرمان السجين من الطعام وتجويعه، فالشعور بالجوع يخلق عند الإنسان حالة من التفكير الخاص ومراجعة للذات، حسابات إنسانية لا يمكن تجاهلها أو المكابرة دونها فهي ماثلة في ذاكرة السجين.[٦٤] وتصف رواية التجربة قلة الطعام الذي يقدم للسجين ورداءته" فهو لايسمن ولا يغني من جوع"،وهذا ما يؤكده وصف السارد العليم: "كانت اللقيمات التي تأتيه تثير ذكريات

([٦٠]) الهودلي، (الشعاع ...) مصدر سابق ، ص . ٩٢ .

([٦١]) الهودلي،(أمهات ...) مصدر سابق، ص . ١٤ .

([62]) רונן יניב :אסירים ביטחוניים בבתי כלא בישראל (ירושלים :מרכז המחקר והמידע בכנסת ،2009، עמ" 11)

([٦٣]) الهودلي (الشعاع...) مصدر سابق، ص . ١٤٣.

([٦٤]) أبوشمالة، مرجع سابق، ص .١٥٣.

معدته، وتبقيها على اتصال بمصادر الطاقة، رغم شحتها ونتافة محتواها."[٦٥] وليس هذا فحسب فأحيانًا يصل حرمان السجين من الطعام إلى أحلامه ليظل يلاحقه في نومه وصحوته حتى يستحوذ على تفكيره فيصبح غير مطمئن:"قال لي قرن الموز لا تؤأخذني، تأخرت عن عيادتك طويلًا ..إنهم كما تعلم القردة الذين يتخطفون الموز كما يتخطفون أرواح العباد".[٦٦]

الحرمان من العلاج:

يتعمد السجّان ترك السجين المريض يتلوع ألما ، بهدف إذلاله في طلب العلاج، ويصف السارد العليم حال السجين عامر وهو يصارع المرض: "في اليوم السابع والأربعين، أصبح عامر وصدره ينزف ألما قاسيًا، وكأن جدران هذه الزنزانة قد ربضت على ضلوعه.. الهواء يتثاقل، ويئز في أعماق صدره، كأنه سكاكين حادة.. ما العمل؟! لقد أصبح في أشد الحاجة إلى علاج ..لا بدّ من أن يراه طبيب. طلبه، مرارًا ، في الأيام السالفة، فلم يعطوه آذانهم، وكأن هذا الأمر من الموبقات السبع. "[٦٧] يترك الحرمان من العلاج أثرًا نفسيًا يغزو روح السجين يضاف إلى الألم الجسدي الذي لا يمكن تجاهله بالمكابرة، فيدفع حرمان جسد السجين من العلاج إلى مزيد من الحرمان بسبب تلك العوائق التي تحول بينه وبين تلقي العلاج اللازم. وكأن الحس الإنساني في حالة عامر تلك هو أقرب إلى جنس الحيوان الذي ربما يكون أرحم بكثير.

الحرمان من النوم:

يستخدم هذا النوع من الحرمان أثناء التحقيق مع السجين لإيصال السجين لحالة من استجداء مقومات حياته والتوسل من أجلها، كما أنه يهدف إلى إبقاء السجين في حالة من الاضطراب بسبب الطلب على تلك الحاجة والتي يسعى السجان جاهدًا إلى إيصال السجين إليها، وتعد هذه الوسيلة من أهم الوسائل وأنجحها في الضغط على السجين من قبل المحقق ، فهو يعمد إلى ملاحقة النوم في عيني السجين وإجهاده وجعله مستيقظًا فترة طويلة، للوصول به إلى حالة من التوتر بسبب النقص في إشباع حاجته من النوم، التي تزداد كلما زادت المدة الفاصلة بين الشعور بالحاجة إلى الإشباع وبين الإشباع، وهذا التوتر هو لب عملية

([٦٥]) الهودلي، (ستائر العتمة،ج١...) مصدر سابق، ص . ١٠٣.

([٦٦]) الهوددلي ، (الشعاع...) مصدر سايق، ص ٨٠ .

([٦٧]) الهودلي (ستائر١...) مصدر سابق ، ص ١٠٣.

الإحباط التي يسعى السجان لإيصال السجين إليها".[٦٨] ففي رواية (ستائر العتمة) يتناوب المحققون على بطل الرواية عامر بهدف حرمانه من النوم من ثمّ إرهاقه والوصول به إلى حالة من التشتت وعدم التركيز، كما يظهر في المقطع السردي الآتي: "أربع ساعات، والنعاس يغالب عيون عامر .. كلما مال رأسه، وأغمضت عيناه، وجد هذا اللعين يهزه من أكتافه ويقول له:

- لم يبق إلاّ القليل يا عامر.. لنطابق ما عندك على ما عندنا، هذا كل ما نريده.. أنت ترهق نفسك بهذا الإصرار الذي لا مبرر له. هل ترانا نتركك دون الوصول إلى المطلوب ..؟ الكرة في ملعبك وأنت حر..

وانقضى نهار، وبدأ ليل وهم يتناوبون على عامر .. كان الهدف واضحًا ، وهو إبقاؤه بلا نوم مع إرهاق الذهن وبالتالي إضعاف نفسيته ، وتردي الحالة المعنوية .. وأصبح عامر بعد مضي ثمان وأربعين ساعة في ضنك وكرب شديدين . أصبح في برزخ بين النوم، واليقظة ".[٦٩]

إن حرمان السجين بهذه الصورة يعني حصاره جسديًا ونفسيًا ، فالرواية تبين بعض طقوس الحرمان الجسدي التي يحاول المحقق أن يجد من خلالها منفذًا ينفذ منه إلى جسد السجين، ليجد فيه مكانًا يقوده إلى الاعتراف. فهو بهذا لا يجد منفذًا أحسن من حرمان السجين من لذة النوم.

والسؤال الذي يفرض نفسه، هل كان السجناء يستسلمون للتعذيب والحرمان الذي فرضته عليهم سياسة السجان وأصبحوا يعتاشونه حتى صار جزءًا من حياتهم داخل المعتقل؟!، أم أنهم تحدوا السجّان وصمدوا وصبروا؟! هذا ما ستجيب عليه الروايات قصد الدراسة.

الصمود والتحدي :

إن التحدي هو رفض الواقع ونقضه، فإن لم يكن فمعنى ذلك قبوله كما هو والتسليم له. وفي ذلك مخالفة لسنن الحياة القائمه على نقض الواقع والصراع معه، وهذا ما سلكه الأسرى الفلسطينيون والعرب قبل أن تكبل القيود معاصمهم، نقضوا حكم الاحتلال، تحدّوه، رفضوا التسليم، حملوا السلاح، فكان السجن نتيجة للتحدي ونقض الحكم الجائر.[٧٠]

([٦٨]) أبو شمالة، مرجع سابق ، ص ١٤٧.

([٦٩]) الهودلي ، (ستائر١...) مصدر سابق، ص . ٥٦.

وفي السجن وجد السجين نفسه وجهًا لوجه أمام السجّان بأدواته القمعية وأساليبه الوحشية، فرغم فظاظة المكان والظلم الذي يمارس فيه، ما كان من السجين إلّا أن يسعى جاهدًا إلى نقض حكم السجّان فيه، معلنًا التحدي ولا خيار إلّا التحدي، فقد عرف السجين أن المحتل أراد من تلك القيود أن تجعل منه عبدًا ذليلًا لا يقوى على مواجهة المحتل، وهذا ما دفعه إلى التمسك بخيار الصمود والتحدي، كخيار وحيد لرفض الظلم والقيد.

حفلت الروايات قيد الدراسة بصور عديدة لتحدي السجين وصموده، فقد تعددت الأصوات الرافضة للسجّان وقيوده، وكأن هذه الأصوات تقدس تحدي السجين وصموده، ومن أبرز صور التحدي، تحدي السجين للسجّان أثناء عملية التحقيق، فالمحقق يستخدم كافة الأساليب لانتزاع اعتراف السجين، والسجين يسعى جاهدًا لكسر تلك الضغوطات بالصمود والثبات والتحدي، وهذا ما حدث مع (إسماعيل) بطل رواية (الشعاع القادم من الجنوب) في صراعه مع السجان، فلا عجب أن يطلق الكاتب على هذه الرواية (رواية التحدي والصمود) بكل معناه، حيث تحدى بطل الرواية المحتل وصمد أمام كافة أساليب التعذيب، وهذا ما أشار إليه الكاتب في مقدمة هذه الرواية، حيث عمد إلى تقديمها بلسان شخصيتها الحقيقية إسماعيل :"من هنا كان التفكير يراودنا ونحن في قيود الأسر أن نخرج بهذه التجربة إلى عالم الحرية، إدراكًا لأهميتها، وما تحمله في طيّاتها من رسالة صمود، ومواقف عزّ، تسجل كل يوم في معارك الإرادات".[٧١] لم يكن أمام السجين فرصة الاختيار بين طاعة السجّان والإذلال له، وبين الصمود والتحدي، فالسجين المناضل يعي تمامًا ما هي حقيقة سجّانه وأن لا خيار أمامه إلا التحدي والمقاومة، فأول تحد يواجه السجين كما أسلفنا هو تحدي المحقق وعدم الاعتراف، فصمود السجين خلال مسرحيات التحقيق والتعذيب يشكل منعطفًا فاصلًا في تحدي السجّان: "خذها مني أيّها المحقق اللعين ..

- أنا قدمت ما عليّ ...
- احتللتم أرضنا، وسفكتم دماء شعبنا.. وما على الرجال الأطهار من لبنان إلّا أن يقوموا بمقاومة هذا الاحتلال .. وأنا بدوري أديت ما عليّ ."[٧٢] حيث تبدو ملامح تحدي السجين صريحة وواضحة في تلك المجتزأة النصية.

([٧٠]) أبو شمالة، مرجع السابق ،ص . ١٨٦.

([٧١]) الهودلي ، (الشعاع...) مصدر سابق، ص ص . ٣، ٤ .

([٧٢]) الهودلي، (الشعاع ...)، مصدر سابق، ص . ٥٢.

لعبت لغة الصمت دورًا بارزًا ومهمًا في رواية التجربة الاعتقالية، فقد تمسك السجين بلغة الصمت كنوع من أنواع التحدي والصمود، في الوقت الذي كان يطلب منه السجّان التحدث، فنجد أن صمود السجين جاء من خلال صمته في سبيل حماية أسراره وأسرار زملائه المناضلين والمشاركين معه في التنظيم، فقد شكل صمت السجين سلاحًا يتحمل به آلآم السجّان وتعذيبه. [٧٣]"وهذا ما دفع عامر بطل رواية ستائر العتمة أن يتخذ من الصمت لغة تساعده في عدم الاعتراف "– نعم .. خير ما نفعله في هذه الزنازين هو الصمت، وذكر الله.

- وحبذا لو يكون ذكر الله صامتًا .. " .[٧٤]

من هنا عمل السجّان جاهدًا من أجل كسر هذا الصمت المسيطر على إسماعيل؛ وذلك بإيهامه بأن رفاقه في السجن قد اعترفوا وأن لاجدوى من هذا الصمت، إلّا أنهم لم يستطيعوا التأثير على إسماعيل بل زاد صمته إصرارًا وثباتًا "إن هذا القرد الغبي لا يدرك شيئًا من بنية رجال حزب الله، حسب انتماءنا هو انتماء عاطفي .."[٧٥] فإسماعيل يدرك تمامًا أهدافهم الخبيثة التي يسعون إليها من خلال إرهاقه نفسيًا ومعنويًا ، علاوة على خططهم المحكمة في ضرب الصفوف الوطنية داخل المعتقل فنراه يرد عليهم مدافعًا عن رفاقه:" أمّا قاسم فإنه أعند من السباع في مقاربة الخطوب ، سيجبر القرد على الذلة والمسكنة، يعيده على أصله الطيب بكل بساطة؟!أراهن على أنه سيقتل المحقق بطول صمته".[٧٦]

إن صمود السجين يتعزز بقوة إيمانه، كما يتعزز بتجارب غيره من البشر، وتأكيدًا على ذلك يقول السارد :" هكذا بدأ سعيد يشعر ببعد آخر، وهو ألاّ يكون لذاته فحسب، وإنما يكون للذات الكبيرة، التي تشمل كل مسلم، وكل إنسان مظلوم على وجه هذه البسيطة المثخنة بالجراح . كم أراحه هذا الأمر، حيث إنّ مصيبته هانت عندما رآها في مشهد واسع عريض للمصائب التي ملأت العالم الإسلامي طولًا وعرضًا ، بل وجد نفسه في نعمة وعافية وستر مقارنة بغيره".[٧٧] إذا كان سعيد بن الوكيل يرى أن

([٧٣]) انظر، أبو شمالة، مرجع سابق ،ص ص . ٣٩، ٤٠.

([٧٤]) الهودلي، (ستائر،ج١...) مصدر سابق، ص . ٢٣ .

([٧٥]) الهودلي ، (الشعاع...) مصدر سابق، ص . ٥٤ .

([٧٦]) المصدر نفسه، ص . ٥٥.

([٧٧]) الهودلي، (ستائر... ،ج٢) ، مصدر سابق ، ص . ١٠١ .

محنته في السجن لا تساوي شيئًا مقارنة بغيره من المقموعين والمظلومين ، فإن إسماعيل بطل رواية الشعاع القادم من الجنوب يتحدى المحتل بتجسيده صورة بلال بن رباح كرمز من رموز الصمود أمام العدو، وهو في صموده يردد قول بلال بن رباح المعروف لمعذبه أمية بن خلف،(أحد،أحد)"أحد، أحد .. أحد، أحد .. أحد، أحد .. أحد، أحد .. هو وحده القادر على كل شيء.. أحد برمته ..أحد بفضله، أحد بلطفه .. أحد في حكمه ..لا معقب على حكمه .. أحد وأنتم لاشيء".[٧٨] ولعل هذا الصمود القوي للبطل إسماعيل؛ هو ما دفع المحقق الصهيوني أن يتعجب منه ويعلن هزيمته أمام إصرار هذا البطل وتحديه الراسخ كالجبل، فهو رغم كل ما ألمّ به إلا أنه بقي صامدًا وصامتًا ، حيث يقول السارد على لسان المحقق:"إننا أمام رجل من كوكب آخر .. ما هذا الصمود والتحدي؟! هل تستطيعون لو أنكم مكانه ؟! لو أنكم من جيله؟! ولد شبل يتحدانا جميعًا لا نأخذ منه "حقًا ولا باطلًا "..تجمعت على رأسه عدة مصائب في آن واحد، جروحه الملتهبة آلآمه التي تشبعه عذابًا وتريحنا من تعذيبه، الحرب النفسية التي نشنها عليه بلا هواده .. الأسر، القيد .. الخ ..ولكن ما هذا الفشل الذريع الذي رمانا بهذا الولد .. هل نعلن استسلامنا؟! هل نهزم بهذه السهولة؟! ليته يعترف ولو بشيء بسيط نقنع به أنفسنا ورؤوسنا بأننا هزمنا ."[٧٩]ولكي يحافظ السجين على صموده وثباته يعمد إلى أن يعرض للسجّان سلسلة من جرائمه المعروفة عبر التاريخ:"لماذا يحاربكم الفلسطينيون؟!أحتللتم أرضهم وطردتم شعبهم وسكنتم ديارهم .. هل يصفقون لكم! ماذا أبقيتم لهم من أوطانهم.. ."[٨٠]

وفي مكان آخر من الرواية يظهر لنا إسماعيل الدور الجوهري الذي يقف وراء صموده ورفع معنوياته؛ إنها والدته التي بدورها صمدت وصبرت؛ ما رفع من معنويات ولدها إسماعيل: "ترفع معنوياتي عنان السماء.. وتجعلني أوفر كلماتي التي كنت أجهزها لرفع معنوياتها .. كانت تشعرني بأنها توزع معنويات لبنان كلها وكأنها الوكيل المعتمد لماركة المعنويات المسجلة ذات الجودة

([٧٨]) الهودلي، (الشعاع...) ، مصدر سابق ، ص . ٦٣.

([٧٩]) المصدر نفسه، ص ص . ٦٤ ، ٦٥.

([٨٠]) الهودلي (الشعاع ...) مصدر سابق، ص . ٨٦.

العالية[٨١]"وفي مكان آخر يقول السارد:"كانت سطور أمي تتكلم وترسم على صفحة قلبي انطباعاتها .. كنت أرى قلبها ينبض مع قلبي رغم بعد الزمان والمكان، أرى في رسائلها روحًا تجري في كياني .. فقناعتها بالمقاومة لا تتزعزع بل تزداد رسوخًا ".[٨٢]

يسترجع إسماعيل من خلال تلك المجتزآت النصية السر وراء مقاومته للمحتل وصموده أمام مطارق التعذيب والاعتقال، ما هو إلا صمود مستمد من صمود والدته؛ لهذا فإننا نجد الرواية ورواية التجربة الاعتقالية بشكل خاص تريد أن تنطلق بدورالمرأة بتجاوزها للمهمات المنزلية المعهودة ضمن مجالها الخاص إلى مهمات ترتقي بمستواها، فهي بذلك تحافظ على ثيمة أساسية من ثيمها السردية وهي الدور الذي تقدمه المرأة تجاه المقاومة الوطنية، فهي بدعمها وإسنادها تخطت كل الحواجز المفروضة عليها، فلم تعد تلك المرأة محدودة القول والفعل، فأمومة المرأة والمرأة الفلسطينية بشكل خاص هي نضال لما واجهته من ظلم بحق بيتها وأرضها وابنها، فلا عجب أن نجدها دومًا في قلب المواجهة، فهي إن لم تكن أم شهيد أو أم أسير، فهي شهيدة ومقاتلة وأسيرة . من هنا نجد أن السجين إذا ما ضاقت به الزنزانة وقسّى عليه السجّان، يعود في ذاكرته إلى ذلك الحضن الذي ضمه ومنحه قوة الإرادة و الصمود في مواجهة سجّانه "كانت والدتي تحب رجال المقاومة.. تكره الاحتلال، وتتمنى لو تتمكن من أن تضم سواعدها لسواعد المجاهدين ، كانت رغم حبها لي ترقب وتحقق آمالها فيّ "تغرش" على نشاطاتي مع المقاومة تتمنى لي إثبات رجولتي وأصالة نسبي ونجاحها في تربيتي".[٨٣] ولعل هذا الحضور الوجداني للمرأة في رواية التجربة الاعتقالية عايشه الأسرى في كل أوقاتهم وفي أشدّ محنتهم؛ لأنهم يدركون تمامًا أن لهم شركاء خارج السجن يشاركونهم الوجع يومًا بيوم، حيث إنهم يعلمون أن ما يمرّ عليهم من معاناة داخل السجن تقف خلفه دمعة أم وأخت وبنت وزوجة.

ويكتمل صمود المرأة المعتقلة حين يتحول إلى عصيان وتمرد على أوامر السجان، كما حدث مع سهام بطلة رواية (أمهات في مدافن الأحياء) التي رفضت بدورها التفتيش المهين والمذل للأسيرات:

"– تفتيشك بهذا الشكل غير قانوني وغير أخلاقي..

---

(٨١) الهودلي، (الشعاع ...)، مصدر سابق، ص ٢٧٣.

(٨٢) المصدر نفسه، ص . ٢٠٩.

(٨٣) المصدر نفسه ، ص . ١٠٤.

- إذًا فأنت ترفضين..

- أرفض التفتيش المذل.. لكم أن تفتشوا بهذا الجهاز الرنان.. هذا يكشف عن كل شيء ممنوع وهو معتمد في كل العالم..

- إذًا فأنت معاقبة "زنزانة انفرادي" .. خذوها هناك ..

تعتقد أنك تخيفني بهذا العزل .. افتح ملفي عندكم تجدني قد عزلت أكثر من خمس سنوات.. أنتم لا تتعلمون كرامتنا فوق كل اعتبار، هل تفهمون؟!."[٨٤]

فسهام بطلة رواية (أمهات في مدافن الأحياء) مثلت صورة الأنثى الواعية المتمردة على السجّان وقيوده، غير آبهة بما يمكن أن يتخذه ضدها من عقاب، وهي بذلك تتخطى حواجز القدرة المحدودة، لتعلن للعالم أنها لا تحتاج إلى من ينادي بتحررها، فالمرأة والمرأة الفلسطينية بشكل خاص، يمكن لها أن تقوم بكل عمل يقوم به الرجل، وربما تتفوق عليه بسبب تلك الظروف التي فرضت عليها.

وتعليقًا على ما سبق، نجد أن ثيمة الصمود والتحدي هي من أهم الثيمات السردية الحاضرة بقوةً في متن نص رواية التجربة الاعتقالية، فالسارد يرى في صمود السجين في وجه سجّانه ما هو إلّا طريق من طرق المقاومة: " لقد اخترنا خيار المقاومة ونبذنا خيار التعايش مع اليهود بكل قوة ومنذ اللحظة الأولى".[٨٥] يتحدى السجين المحتل؛ لأنه واثق من زواله، فهو على ثقة تامة بالغد وبالوطن وشعبه، فقد حمل على كاهله مهمة تحرير الوطن ولا شيء غير تحريره.

المبحث الثاني:التشكيل الفني في رواية التجربة الاعتقالية الهودلية

١- بنية الشخصية

شكلت الظروف السياسة، والاقتصادية، والاجتماعية دافعًا قويًا لتشكيل شخصية الإنسان الفلسطيني، فالأحداث التي مرّبها أبناء الشعب الفلسطيني من تشتت، ولجوء، واحتلال، واعتقال أثرت على حياة الإنسان الفلسطيني وانعكست بدورها داخل

([٨٤]) الهودلي، (أمهات...) ، مصدر سابق ، ص ص . ٢١، ٢٢.

([٨٥]) الهودلي، (الشعاع...) ، مصدر سابق ، ص . ٩٤ .

الرواية الفلسطينية، فشخصيات اللاجئين والمعتقلين والنازحين والخونة والمتعاونيين احتلت مساحة واسعة من الرواية الفلسطينية، خاصة بعدما شعر الفلسطيني بأنه وحيد في مقاومة المحتل، فنجد أن شخصية الإنسان الفلسطيني تشكلت تبعًا لتلك الظروف القاسية التي مرّ بها منذ وعد بلفور عام١٩١٧؛ حيث برز الجانب الوطني، والحس القومي، والنضالي للمواطن الفلسطيني.[٨٦] والذي بدوره انعكس داخل النتاج الأدبي سواء أكان شعرًا أم نثرًا ، فصارالأدب الفلسطيني جنبًا إلى جنب مع المسار الحياتي للشعب الفلسطيني، فلم يقتصر العمل النضالي على الكفاح المسلح، بل أشهر الفلسطيني قلمه، وكلمته الملتهبة في وجه المحتل، وقدكان الأدب الفلسطيني الذي أنتجه المعتقلون الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية، أحد هذه الوسائل النضالية، فجاءت كتاباتهم أكثر قدرة على التعبيرعن نفسية الإنسان المعتقل، وما يتعرض له داخل زنازين المحتل من قهر، وتعذيب .[٨٧] وبما أن رواية التجربة الاعتقالية الفلسطينية هي سرد للواقع، يبقى الواقع هو المحور الأول لمكنون الشخصية الفلسطينية، فهو الذي يفرض عليها إن كانت شخصية شريرة أو شخصية خيرة.

ولعل تلك التقسيمات للشخصية، تنير لنا طريق تناول الشخصية في رواية التجربة الاعتقالية، فالغاية الرئيسة من سرد القصص الاعتقالية الفهم العميق للحدث، والشخصية، فليس هناك شخصية خارج الحدث، كما أنه ليس هناك حدث بمعزل عن الشخصية، بل هي العنصر الفعّال في توليد الأحداث، وتحديد مساراتها فالحدث، والشخصية مبنيان على أساس واحد هو تجسيد الفعل السردي بقالب فني، وأدبي ملائم .[٨٨]

ومن نماذج الشخصية في رواية التجربة الاعتقالية :

أولًا : شخصية الرجل :

قدمت رواية التجربة الاعتقالية النماذج الواقعية لشخصياتها، فلم تقتصر على النماذج الإيجابية، بل تطرقت، وبقوة إلى النماذج السلبية، والمتتبع لرواية التجربة الاعتقالية وأحداثها يجد أن نماذج الشخصيات فيها تتكون من ثلاثة نماذج رئيسة هي: المناضل، والسجان، والمتعاون (المتخاذل) أو العميل، وسوف يتم عرض هذه النماذج كلًا على حدة .

---

(٨٦) واصف أبو الشباب، صورة الفلسطيني في القصة المعاصرة من ١٩٤٨ إلى ١٩٧٣ (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٩) ، ص .١٥.

(٨٧) محمود موسى زياد ،الأدب الفلسطيني في سجون الاحتلال الإسرائيلي ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بيرزيت : كلية الدراسات العليا ، ٢٠٠٥/٢٠٠٦) ، ص . ١ .

(٨٨) أمارابك: مجلة علمية محكمة تصدرعن الأكاديمية الأمريكية والعربية للعلوم والتكنولوجيا ، المجلد(٧٠)، العدد(٢٠)، ٢٠١٦ ،ص . ١٢٥.

المناضل :

يشكل هذا النموذج الامتداد الطبيعي لجاذبية الشخصية وسلطتها المعنوية التي تفرضها على الشخصيات الأخرى، وهو ما يمكن تسميته بالسلطة النضالية، ويقصد بذلك الوعي السياسي للمناضل؛ ما يجعله محط إعجاب الناس واهتمامهم بفضل هذا الدور المميز الذي يسند إليه .[٨٩] فهو النقيض المقابل لنموذج شخصية العميل، شخصية تنجذب حولها شخصيات الرواية، وتلتف، ومن الواضح اهتمام السارد بهذه الشخصية كونها تكشف عن معالم وطنية، وإنسانية، ونضالية، فهي شخصية بارزة على مستوى السرد أسهمت من خلال صمودها، ومقاومتها في نمو الأحداث، وتطورها، فكان لها حضورها المميز في رواية التجربة الاعتقالية، فرفض أوامر السجان هو نوع من النضال والمقاومة، وإيمان السجين، وثباته هو نوع آخر من النضال، وصمود السجين، وانتصاره أمام حفلات التعذيب، والتنكيل هو أيضًا نوع من أنواع النضال والمقاومة.

يتجسد حضور الشخصية النضالية على نحو مشابه في رواية التجربة الاعتقالية، فجميعها تعرضت لنفس التجربة الاعتقالية. ولقد برزت شخصية (عامر) بطل رواية (ستائر العتمة) كشخصية نضالية، جسدت فكر الكاتب الإسلامي، إذ يتعرض عامر إلى السجن لمقاومته وكفاحه الطويل ضد القهر والاحتلال، والاستبداد، فيصف لنا السارد العليم ما قام به عامر من عمل نضالي، وثوري من خلال هذا المشهد السردي : " يا لها من لحظات عظيمة يتربع فيها صوت الرصاص على رؤوس الظالمين .. أصبحت سيارتنا بمحاذاة سيارتهم .. كتلة الحقد التي تسيرعلى أربع عجلات تتناولها رشقات بنادقنا . نبيل يحسن التصويب .. أصاب السائق المستوطن في مقتل .. انحرف عن الشارع، وراح يهوي في الوادي المحاذي .. تضرجوا بدمائهم، وخرّ عليهم سقف أحقادهم الذي بنوه من أشلاء شعبنا . إنه لأمر رائع يا عامر .. عملية ناجحة، ومباركة " .[٩٠] وحتى المناضل لايستكين في سجنه، فنضاله يجري في عروقه فيمثل دور الرافض، والمقاوم كما في شخصية (سعيد بن الوكيل) في رواية (ستائر العتمة) في جزئها الثاني الذي قرر التمسك بروح الإيمان، والثبات في مقاومة السجان، والتحلي بالصبر أمام حفلات التعذيب، ومسرحيات التحقيق، وكان سلاح هذا كله بالنسبة لسعيد هو الذخيرة الحية من مخزون الذكر والقرآن.[٩١] يقول السارد: " قرر سعيد في نفسه بأن عليه أن يصعّد أكثر من تصعيدهم سأصعد كما ونوعًا. كمًا في عدد أجزاء القران، وآلاف الأذكار، ونوعًا حيث الوقفات

([٨٩]) بحراوي، مرجع سابق ، ص . ٢٧٢.

([٩٠]) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق، ص .٨٠.

([٩١]) الهودلي ، (ستائر ٢ ...) مصدر سابق، ص . ٤٣.

التي أسبر فيها غور المعاني، عقلًا في الفهم، وقلبًا في المشاعر، وحركةً في العواطف، ثم الانتقال بذلك من السر إلى العلن، ليركبوا أعلى ما في خيلهم".[٩٢] فكانت المعركة التي تدور بين السجين والسجان من هذا المنطلق " _ يا الله . يا قريب . يا مجيب . يا حي . يا قيوم . يا الله . يا الله . يا الله . " فزع المحققون ليشهدوا هذا المشهد الذي لم يروه من قبل، معركة من الصياح المتبادل . هذا يهدد، وسعيد يذكر ويهلل ."[٩٣] ففي هذه الرواية تمسك البطل بسلاح من نوع آخر، وهو الإيمان، والثبات على العقيدة الإسلامية لمقاومة السجان، والتغلب عليه.

وقد شارك المناضل العربي أخاه المناضل الفلسطيني الكفاح، والمقاومة، وهذا ما وثقته رواية التجربة الاعتقالية، فالمناضل اللبناني الجريح (إسماعيل الزين) يتعرض للسجن والتعذيب بقسوة، فيحاول جهد استطاعته المحافظة على أسرار مجموعته وعدم الاعتراف أمام مسرحيات التعذيب، والتحقيق شأنه شأن أخيه المناضل الفلسطيني، فهو يقدم نفسه كسارد مشارك يقص حكايته النضالية التي بسببها دخل السجن إذ يقول: " تخرجت من هذه الدورة وكلي ثقة بالاستخدام الصالح، والناجح للسلاح بمهارة عالية .. تدريب على استخدام الأسلحة الرشاشة .. تفكيكها، صيانتها، استخدامات كل منها .. مزاياها .. قاذفات الصواريخ أل " ار بي جي "، "اللاو " .. العبوات الناسفة، وزراعتها، والتحكم عن بعد .." [٩٤] وما إن تحين الفرصة حتى يشارك إسماعيل في أول عمل نضالي، خطط له مع زملائه، حيث يصفه لنا عبر هذا المشهد السردي:" اكتمل الحضور وبدأ العرض .. وصلت كل العناصر إلى المسرح، تحرك الستار على صوت انفجار هائل ارتجت له القلوب، بدأ غفران بإطلاق صاروخ "اللاو " الذي بحوزته، صوب .. لكنه أخطأ الهدف .. انهمر رصاص قاسم، ورصاصي على رؤوسهم .. انبطحت كلاب الأثر تطلق نباحها باتجاهنا ".[٩٥] وبعد هذه العملية النضالية الناجحة يتم إلقاء القبض على إسماعيل، ورفاقه، ليبدأ معهم مشوار نضالي من نوع آخر، وهو نضال السجين في مقاومة سجانه في عدم الاعتراف، أوالاستكانة. ولعلنا نجد من خلال هذه الرواية أن نماذج الشخصية في رواية التجربة الاعتقالية لم تكن جميعها شخصيات فلسطينية، بل هناك شخصيات تنتمي إلى قوميّات عربية[٩٦] ، شاركت غيرها من الشخصيّات الفلسطينية تجارب مشابهة.

([٩٢]) الهودلي (ستائر٢ ...)، مصدر سابق، ص . ٦٢.

([٩٣]) المصدر نفسه، ص . ٤٩ .

([٩٤]) الهودلي، (الشعاع...) مصدر سابق ، ص . ٣١.

([٩٥]) الهودلي ، (الشعاع ...)، مصدر سابق، ص ص . ٣٦ ، ٣٧ .

([٩٦]) عادل الأسطة، قضايا وظواهر نقدية في الرواية الفلسطينية (عكا : مؤسسة الأسوار، ٢٠٠٢) ، ص . ١٢٤ .

كما استخدم الكاتب الحوار في رسم شخصية المناضل، وتعداد اتجاهاته في مقاومة العدو داخل المعتقل، ومن الاتجاهات التي يلجأ إليها المناضلون المعتقلون داخل السجون، سلاح الإضرابات المفتوحة عن الطعام*[٩٧] التي أثبتت وجودها كأسلحة استراتيجية فتاكه لها فاعليتها في تحقيق مطالب الأسرى، ونيل حقوقهم. فالمناضل (عامر) بطل رواية (ستائر العتمة) يدخل في إضراب مفتوح عن الطعام لهدف منشود هو تلقي العلاج اللازم، فيخرج من هذا الإضراب محققًا الانتصار على سجانه، ويظهر هذا من خلال الحوار الذي دار بين عامر، والمحقق:

– مرحبا عامر .. أما زلت مصرًا على إضرابك ؟

– حتى آخذ حقي في العلاج .. تعلم أن العلاج حق للأسير في كل الشرائع الدولية ..

– ألم يحضر لك "الحوفيش" الممرض العلاج .. هذا غير معقول .. سأبعثه لك حالًا .. لك الان أرجو أن تسلم الطعام .

– العلاج أولًا ..

– خذ مني كلمة يا رجل ..

– حسنًا أدخله .. ولكني لن آكل إلا بعد استلام العلاج .. " [٩٨]

فمن خلال تلك الحوارات استطاع السارد أن يقنع القارئ، ويساعده في الكشف عن مغزى هذه الشخصية وطريقة تفكيرها .

وتعليقًا على ما سبق نجد أن النص الروائي يجنح إلى تكريس صورة المناضل في رواية التجربة الاعتقالية كمثال ناجح للشخصية الجاذبة، ومهما يكن سواء دل مظهر المناضل على حقيقة الشخصية، أو تأخر إدراك هذه الحقيقة لبعض الوقت بالإخفاء، والتمويه أحيانًا، فإن الكاتب ينتهي دائمًا إلى الإعلان عن مصدر الانجذاب الذي يكون ثاويًا ، في زاوية ما، وراء المظهر الخارجي لشخصية المناضل .[٩٩]

العميل :

عانى الشعب الفلسطيني من ظاهرة (العملاء، والجواسيس) ولا يزال، فقد عمد الاحتلال إلى زرع هذه الفئة في غرف الاعتقال، والتحقيق، فاتخذت أشكالًا عديدة، كان الهدف المنشود منها هو نزع اعترافات السجناء، والكشف عن أمور باتت

([٩٧]) * سلاح الاضراب عن الطعام ، ويسمى أيضاً بمعركة الأمعاء الخاوية، يعمد إليه الأسرى بغية تحقيق مطالبهم التي تتجاهلها إدارة السجون، وهو قرار مشروع دولي، يقضي بعدم تناول كافة أشكال الطعام ماعدا الملح والماء حتى يتم تحقيق تلك المطالب . إبراهيم أبو الهيجا، المنسيون في غياهب الاعتقال الصهيوني، (مصر: مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٤)، ص ١٦٠.

([٩٨]) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق . ص ١١٣ .

([٩٩]) بحراوي، مرجع سابق ، ص . ٢٧٥.

غامضة على أجهزة المخابرات الصهيونية، حتى إن هذه الفئة حققت من الانجازات لصالح المخابرات الصهيونية ما عجزت هي نفسها عن تحقيقها، ونظرًا للنتائج الإيجابية التي حصدتها هذه الفئة، فقد عمد الصهاينة إلى زجها مرة، أو مرتين داخل المعتقلات.

تنبهت رواية التجربة الاعتقالية إلى تلك الفئة الخطيرة، وسلطت الضوء عليها بكثافة، فلا تكاد رواية من روايات التجربة الاعتقالية تخلو من ذكرها، والحديث عنها، فلقد شكلت حضورًا واسعًا داخل الأعمال الروائية؛ نظرًا لخطرها الأمني وحالة الفزع والخوف التي تبثها داخل صفوف المعتقلين، حتى إن هناك روايات جعلت من هذه الفئة قضيتها الأساسية كرواية الهودلي الأخيرة (*هكذا أصبح جاسوسًا*)، والتي سلطت الضوء بشكل مكثف على مختلف الطرق التي يمكن أن تتشكل عليها تلك الفئة للإيقاع بالسجين، وسحب اعترافات هامة فشل المحققون أنفسهم في الحصول عليها .

ففي رواية (الشعاع القادم من الجنوب) جاء العميل يتقمص دور الإنسان الشريف المناضل بغية التقرب من السجين والإيقاع به كما في مقطع السرد الآتي: " ذات صباح سمعت صوت سرير يمشي على عجلات .. أدخلوه غرفتي .. استقروا به بجواري .. كان مشهدًا ذكرني بأيام إصابتي الأولى .. رجل كث اللحية، ناصع بياض الوجه .. يلبس عمامة بيضاء مموه بها على جرح في رأسه .. تسرب الدم وصبغ أطراف العمامة .. يده معصوبة .. ساقه أيضًا معصوبة .. يئن أنينًا مؤلمًا أيقظ كل أحزاني .. كان كمن خرج من معركة ضروس، أشعث أغبر أعياه التعب وأخمده الألم .. جلست على سريري أتفكر أمر هذا الرجل .. ملامح وجهه تدل على أنه من رجال المقاومة ".[١٠٠] ففي تلك الوحدة السردية نجد أن السارد التجأ إلى تقنية الوصف، والتصوير للكشف عن مكنون تلك الشخصية، والدور الذي تتقمصه.

وعبر طرقه الملتوية، يعمد الاحتلال إلى الإطاحة بأشخاص من ذوي النفوس الضعيفة، وإسقاطهم ودفعهم في وحل العمالة، كما يظهر في قصة شاب أراد السفر فتعمد الاحتلال على منعه من السفر مرات عديدة مستغلًا حاجته إلى السفر، ليجعل منه.

وقد يأتي العميل على صورة طبيب أو ممرض يتعاطف مع المعتقل، فيعرض عليه خدماته، كما حدث مع (إسماعيل) في رواية (الشعاع القادم من الجنوب) حين عرض عليه الممرض أن ينقل له أي رسالة يريد أن يوصلها إلى الأهل والأصدقاء في لبنان، فيسأله مخاطبًا : " أي أمر تريده أنا مستعد لتلبيته ... رسائل للأهل أطمئنهم على وضعك ... أي رسالة ترغب في إرسالها إلى لبنان، فأنا على أهبة الاستعداد ...".[١٠١] ويتكرر سرد مثل هذه الوحدة كثيرًا في رواية التجربة الاعتقالية، وربما يعود السبب إلى

([١٠٠]) الهودلي، (الشعاع...) مصدر سابق، ص . ١٢٧ .

([١٠١]) الهودلي، (الشعاع...) مصدر سابق، ص ص . ١٢٣ ، ١٢٤ .

أهمية وضع القارئ في أجواء المعتقلات الصهيونية، ونشر الوعي بين جموع الشباب الفلسطيني حول كفاح الحركة الأسيرة ضد الوسائل غير الشرعية من جهة، وزرع التجارب في كيفية التعامل مع تلك الأساليب الخبيثة من جهة أخرى .

ومن الصور الحديثة، والفريدة للعميل، أن يأتي على صورة صديق على الفيس بوك، وهذا ما جاء في سرد الحكاية الثانية من رواية (هكذا أصبح جاسوسًا)، التي جاءت بعنوان " عصفور على الفيس بوك " حيث تقع سهام ضحية عميل (عصفور) على الفيس بوك، يطلب صداقتها، ويدعي أنه مواطن مناضل، فتبوح له بما في جعبتها من معلومات، حتى ينتهي بها الأمر إلى أن تقع في حبه وتقوم بإرسال صورها له، وبعد أن يحكم سيطرته عليها، يصرح لها قائلًا :

"– أنا من وحدة الفيس بوك التابعة للمخابرات الإسرائيلية .

– صرخت

– عصفور إذًا ؟

– عصفور جميل، ما رأيك عزيزتي أنت أمام خيارين لا ثالث لهما . إما أن نستمر معًا أو الفضيحة، لدي من المعلومات ما يشل عرضك، أنت مصدرها، فكري جيدًا أنت ما زلت في بداية حياتك ".[١٠٢]

وعبر هذا المقطع السردي الذي جاء على شكل حوار بين طرفين، تظهر الظروف التي تدفع إلى الوقوع في مستنقع العمالة، التي يمكن أن يكون أبرزها العلاقات الاجتماعية على مواقع التواصل الاجتماعي، إذ تنبه الهودلي لتلك العلاقات، فالعميل لا يصبح عميلًا دفعة واحدة، فهناك ظروف قد يتعرض لها العميل ليصبح ضحية لها، فقد جاءت تلك الرواية عبر سردها التناوبي لتكشف الستار عن هذه الظروف، وليأخذ أصحاب تلك العلاقات الحيطة والحذر. فالاحتلال يستغل كل الظروف ويستخدم جميع الطرق من أجل الإيقاع بعملاء جدد يكرسهم في خدمة مصالحة.

وتختم هذه الرواية في قصتها قبل الأخيرة التي جاءت مستوحاة من عنوان الرواية، فكان عنوان هذه القصة:(هكذا أصبح جاسوسًا) وذلك للتأكيد على الأثر البالغ الذي يمكن أن تحدثه هذه الفئة، إذ إنّ الجاسوس في هذه القصة اتخذ طابعًا غريبًا، ومخيفًا ، إذ جاء على شكل جهاز مخفي داخل جهاز خلوي، وهذا ما يظهره حديث السارد:" لقد أخطأت يا محمود ما كان لك أن تأخذ هذا الجهاز من خلاله سيراقبون أنفاسك، ما أدراك أن شكله الخارجي قديم، ولكن زرعوا في داخله ما يمكن التجسس

(١٠٢) الهودلي، (هكذا...) مصدر سابق، ص . ٢٦.

عليك، لقد زرعوا في جيبك جاسوسًا لهم."[١٠٣] فهذا النوع من الجواسيس يعد من أخطر الأنواع، إذ يقتحم العالم الخاص بالسجين، ليس هذا فحسب، بل إنه يستطيع أن يخترق عوالم جميع من يراسلهم، ويراسلونه على حد سواء.

المحقق:

لعب المحقق دورًا بارزًا في التسلط على السجناء من خلال ممارسته لكافة أساليب التعذيب الجسدي والنفسي، والأساليب الرخيصة من أجل سلب الاعترافات. فهو يحاول الوصول إلى كافة المعلومات بمختلف الوسائل، والطرق غير المشروعة كالضرب والحرمان من النوم، والإهانة، والإذلال، كما استخدم الأساليب النفسية كالابتزاز، والتهديد، والاعتقال الإداري، والضغط على السجين من خلال الأقارب كاستدعاء الزوجة والوالدة والأخت، إضافة إلى محاولات عرض الصفقات، والاعترافات، بحجة إخلاء السبيل، أو تخفيف الحكم على السجين حتى يتم التدرج به، وإسقاطه في وحل العمالة ."فتمثل هذه الشخصية قوة معاكسة تضع الحواجز، والعراقيل أمام الشخصيات، وتمارس عليها سلطتها ".[١٠٤]

عانى السجين الفلسطيني من أساليب المحققين الصهاينة التي باتت بالنسبة له كابوسًا يصعب الخلاص منه، إذ يأتي دور هذه الشخصية في إفشال مشروع الشخصية المناضلة، والمقاومة للسجان، فيعمد إلى تحطيم معنويات هذه الشخصية وإجبارها على الاعتراف، وهنا في رواية التجربة الاعتقالية العديد من الوحدات السردية التي تصف هؤلاء المحققين، حتى إن السجين يطلب الموت على أن يكون مع هذه الفئة في مكان واحد .

ففي رواية (ستائر العتمة) استخدم السارد تقنيتي التدرج، والتحول اللذين سبق الحديث عنهما في عرض هذه الشخصية، فعندما يتعرض بطل الرواية عامر إلى المحققين، فأول صورة تظهر له للمحقق، هي صورة إنسان رحيم لا يتعامل إلا بالأساليب الراقية، لكي يطمئن السجين، وهذا ما أظهره المحقق (كابتن بنيامين) للبطل عامر :" أنا لا أؤمن إلا بلغة العقل .. الحجة مقابل الحجة ... لا أتكلم بشيء، إلا إذا ثبت لدي بالدليل القاطع، والبرهان الساطع ..كذلك، فإني أحب أن أخفف على زبائني الكرام ..لا أحب إرهاقهم .. نصل إلى الأمور من قصيرها .. نتحاور بهدوء .. الحقيقة تظهر كالشمس ولا أحد يجرؤ على إخفائها ... ". [١٠٥] وبعد هذا الأسلوب الناعم من المحقق في الحديث مع عامر الذي لم يجد نفعًا ، يتحول المحقق إلى أسلوب أكثر حزم في التعامل مع السجين عامر وهو الابتزاز في إحضار الأهل والأقارب: "كيف بك يا عامر، وأنت تسمع صرخات

([١٠٣]) الهودلي (هكذا ...)، مصدر سابق، ص . ١٥٨

([١٠٤]) بحراوي، مرجع سابق، ص . ٢٧٩.

([١٠٥]) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق ، ص . ٤٢.

زوجتك، وهي تحت مطارق التحقيق ".[١٠٦] وما إن يفشل المحقق في الحصول على اعتراف من السجين حتى يبدأ معه أساليبه المعهودة والمعروفة من التعذيب والتهديد، وهذا ما وصل بالمحقق (إيلان) إذ صرخ في وجه عامر مهددًا : " سأسلخ جلدك عن عظمك .. ساردك إلى زوجتك وأمك جلدًا بلا عظم.. "شلومو"، " شلومو " أطلب تمديد اعتقال لزوجته وأمه، وأخته، ارفع طلب إذن خاص باستخدام العنف الجسدي مع هذا الوغد .."[١٠٧]. يظهر مما سبق كيف لشخصية المحقق أن تتغير، وتتحول بالتدريج مع البطل، وهذا ما عرف عن الآخر وطرائقه في الحصول على المعلومات بوساطة نقاط الضعف الإنسانية، والوسائل الابتزازية لتطويع السجين لتقبل فلسفة القوة الآسرة له. [١٠٨] لينتهي المطاف بالمحقق (إيلان) أن يعترف بقوة السجين عامر الذي رفض المحقق الإسرائيلي وقاومه بكل صوره، فهو يعبر عن هذا بقوله: "ستكون هزيمتنا الساحقة عندما يكثر أمثال هؤلاء .. هؤلاء الذين يناضلون بهذا الإيمان الراسخ كالجبال [١٠٩].

إن البحث عن الحقيقة، تدفع المحقق إلى استخدام أسلوب الإقناع من خلال عقد مقارنة بين كفاءته وكفاءة سجين جريح لا حول له ولا قوة، لاعتقاده أن الكفاءة تأتي من القوة، وهذا ما حدث مع البطل (إسماعيل) أثناء تعرضه للتحقيق في رواية (الشعاع القادم من الجنوب) حيث يخاطبه المحقق مهددًا: "اسمع أيها الولد أنت أمام طاقم من ضابط المخابرات الإسرائيلية، المخابرات الإسرائيلية بكل كفاءاتها وخبراتها، بكل قوتها وجبروتها في كفة، وأنت الولد الضعيف، الرصاص يمزق جسدك .. بين الحياة والموت وتكابد آلامك وحدك، هل تعتقد أن كفتك سوف ترجح على كفة المخابرات الإسرائيلية ؟! أجب هل تعتقد ذلك ؟"[١١٠] وتعليقًا على الوحدة السردية السابقة، نجد أن صفات الانفعال، والعصبية هي جزء لا يتجزأ من شخصية المحقق، فهو باستخدامه لضمير المخاطب، يظهر الحقد، والكراهيّة الدفينة كثيمة أخلاقيّة يختزنها في داخله تجاه هذا السجين .

ومن الأساليب الرخيصة التي يلجأ إليها المحققون لانتزاع اعترافات السجناء أسلوب التخفي، والاختباء تحت الطاولة، وذلك لمراقبة حوار السجناء وسماعهم في غرف التحقيق، وهذا ماورد في الحكاية الثامنة من رواية (هكذا أصبح جاسوسًا)، التي جاءت بعنوان "من تحت الطاولة "، حيث يتعمد المحقق الاختباء تحت الطاولة لسماع حوار السجناء، وتصريحاتهم بالاعتراف، وهذا ما صرح به السارد المشارك: "حاولت جهدي إيقاف لسانه، ولكن كانوا قد هجموا علينا، دخل محققون من خارج الغرفة، وخرج

([١٠٦]) الهودلي (ستائر ...)، مصدر سابق، ص . ٤٨ .

([١٠٧]) المصدر نفسه، ص . ٨٤.

([١٠٨]) حسين سرمك ، المشكلات النفسية لأسرى الحرب، (القاهرة : مكتبة مديولي ، ١٩٩٥) ، ص . ١١ .

([١٠٩]) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق، ص . ٧١.

([١١٠]) الهودلي، (الشعاع...) مصدر سابق، ص . ٥٩.

الذي من تحت الطاولة ودفعوا أمامهم صاحبي الذي انفلت لسانه. وانحرف تجاه التحقيق، وأصبح بين أيديهم مادة دسمة وأساسًا يرتكزون عليه، أدركت عندها كم كنت مخطئًا عندما شاركتهم هذه المسرحية"[١١١]. نجد من خلال الوحدة السردية السابقة أن الاحتلال يعمد عبر مسرحيات التحقيق إلى ضرب صفوف السجناء المناضلين حتى يفقدوا السيطرة على زمام الأمور، وبالتالي يصبحون ضحية لتلك المسرحيات .

وتتكرر صور المحقق داخل رواية التجربة الاعتقالية، ففي كثير من الأحيان يحاول المحقق تضليل السجين بإيهامه أن زملاءه قد اعترفوا عليه، فيشن عليه حربًا نفسية مخاطبًا :"رفاقك عندي سبقوك،واعترفوا[١١٢]. لكن السجين يدرك تمامًا أنه في امتحان تحقيق، ولن تمر عليه ألاعيب المحققين ومسرحياتهم فيرد عليه عبر مونلوج داخلي قائلًا : "الجزء الثاني مستحيل لأني أضعفهم، ولم ولن أعترف بإذن الله، الحلقة الضعيفة ثابته راسخة كالجبال، فما بالي بحلقات القوة ؟ "[١١٣]. جاء المشهد الحواري ممزوجًا بمشهد حواري داخلي يكشف للقارئ عن الأبعاد النفسية للشخصية[١١٤]، حيث نجد تقنية دوران الضمائر، فالمحقق في حواره مصاحب لضمير المخاطب، والسجين يصارحه عبر حوار داخلي مستنكرًا ، وهذه التقنية تبدو جلية في صراع السجين مع السجان في رواية التجربة الاعتقالية .

ثانيًا : صورة المرأة

أسهمت الظروف السياسية، والاجتماعية، والتغيرات الناتجة عنها في تطور دور المرأة الفلسطينية، فلم تعد تلك المرأة التقليدية حبيسة منزلها، فقد ساندت الرجل، ووقفت إلى جانبه، وشاركته في بناء المجتمع ونهضته، وهذا التحول، والتطور في شخصية المرأة الفلسطينية ما كان لولا الظروف الاستثنائية التي مرت بها، فيرى الكاتب وليد الهودلي أن للمرأة الفلسطينية دورًا هامًا، ومساويًا، ومكملًا للرجل في نضاله وصموده أمام جبروت الاحتلال، وظلمه .[١١٥] و يؤكد ذلك قول الراوي: "المرأة ودورها في المجتمع أوسع من قضية أو الحجاب النقاب.. أنا أرى أن المرأة لها دور لا يقل أهمية، ولا نوعًا، ولا اتساعًا عن دور الرجل.. وأرى أن تصورنا عن دور المرأة يجب أن نعود به إلى الأصل الصافي قبل أن تشوبه شوائب عادات الناس وتقاليدهم ..."[١١٦].

([١١١]) الهودلي، (هكذا ...) مصدر سابق ، ص . ٨٣.

([١١٢]) الهودلي، (الشعاع...) مصدر سابق ، ص ٥٤. .

([١١٣]) المكان نفسه ، ص ٥٤.

([١١٤]) يوسف، مرجع سابق ، ص . ٨٨ .

([١١٥]) مقابلة الباحثة مع الكاتب، رام الله، ٢٠١٩\٨\١٢.

([١١٦]) الهودلي، (أمهات ...) مصدر سابق، ص . ١٠٠

وإيمانًا بهذا الدور الذي تؤديه المرأة، عرضت رواية التجربة الاعتقالية صورة المرأة الباطنية دون التركيز على صورتها الخارجية كالجسد، والجمال، فاعتمدت على الفعل الأنثوي كمصدر دائم ووحيد للانجذاب نحو شخصية المرأة، فالمرأة في الرواية لا تلفت الانتباه إلا بقدر ما تقدم من أفعال تثير الإعجاب.

تمثل رواية (أمهات في مدافن الأحياء) صورة المرأة الفلسطينية داخل سجون الاحتلال، حيث عرضت الرواية صورة المرأة بكل أبعادها الإنسانية، حبها، وعشقها، أمومتها، كفاحها، ونضالها، بقالب من الواقعية.

تأثرت المرأة الفلسطينية بتلك الظروف التي تأثر بها الرجل؛ لذا جاءت صورتها قريبة من صورة الرجل، فهي تقوم بالمهام التي يقوم بها الرجل إيمانًا بقدرتها على حمل سلاح المقاومة، فهي قادرة كما الرجل على الرفض، والصمود، والتحدي .

والهودلي بروايته هذه استطاع أن يصل بالبطولة النسائية إلى مرتبة رفيعة، فهي تقف في وجه السجان، وتتغلب عليه، وتتحمل التعذيب الجسدي، والنفسي، كونها صاحبة بطولة كاملة، لها فعلها الثوري وتاريخها النضالي. من هنا حفلت رواية التجربة الاعتقالية بإبراز جانب التجارب الاعتقالية التي مرت بها المرأة داخل زنزانتها؛ لذا يمكن القول: إن رواية (أمهات في مدافن الأحياء) هي رواية المرأة الفلسطينية الصامدة بلا منازع، وهي محاولة لإثبات دور المرأة السجينة وفعلها المساوي لدورالرجل .

وقد قدمت رواية التجربة الاعتقالية للمرأة صورًا عديده كان أبرزها:

المرأة المناضلة:

تظهر صورة (سهام) في رواية (أمهات في مدافن الأحياء) كنموذج للمرأة المناضلة، والثورية التي تدخل حيز الفعل الثوري، فتتحدى المجتمع، ونظرته تجاه المرأة، وترفض التخلي عن مبادئها رغم كل الضغوطات التي وجهت إليها، ويظهر هذا جليًا في حديث الشخصية المحورية / الساردة سهام مع نفسها عبر مونولوج داخلي " ما عليك إلا أن تبتعدي عن العمل التنظيمي ... لا تمسي بأمنهم فإنهم لا يمسون بك ... هل هذه القاعدة صحيحة ؟! أين دوري في الحياة إذا ؟! الرسالة التي أحمل ؟! تستطيعين تجسيد أحسن دور من خلال العمل الاجتماعي ... إذًا هو تراجع عن بيعة الجهاد إلى بيعة النساء ... ألست امرأة ؟! وتنتمين أيضًا إلى مجتمع يقزم من دور المرأة ويهمش كيانها في البيت ومطبخه ... أليس كذلك ؟! "[١١٧]، فسهام من خلال حوارها الداخلي لعبت دورالسارد والمسرود له في رسم شخصيتها القوية الثائرة، فهي تتحدى نفسها، ومجتمعها الذي يعمد إلى تهميش دور المرأة وتقليصه، إذ شكلت ثيمة التحدي تلك حيزًا ملحوظًا في رواية التجربة الاعتقالية .

([١١٧]) الهودلي، (أمهات ...)، مصدر سابق، ص ١٠ .

السجن: " استقرت السيارة تحت مبنى الحكومة لديهم وكان بيني وبين الشهادة لحظة، ثانية ...بسملت، وضغطت على كبسة التفجير ولم تنفجر... يا إلهي ... ماذا هناك ؟! نزلت لفحص الأمر فشك رجال الأمن ... أحاطوني من كل جانب وكان الاعتقال بدل الشهادة ..."[١١٨] تظهر الوحدة السردية السابقة شجاعة المرأة، وحجم الدور البطولي، والعمل النضالي الذي يمكن لها أن تقوم به بكل جرأة، وشجاعة، فتتمكن من خلاله إثبات ذاتها، وكيانها كإنسان فعّال له من القدرات المساوية لقدرات الرجل.

وفي السجن تناضل المرأة بكل ما يتوفر لديها من إمكانيات، إذ تجتمع سهام، وصديقاتها ويتفقن على القيام بثورة ضد السجان، وقيوده بغية الحصول على مطالبهن: " الطريق واضح .. عليكم ألا تتنكروا لحقوق الأسيرات .. لا نطلب منك الإفراج عنا.. لست صاحب القرار كما قلت، ولكن نريد ما يحقق لنا حياة كريمة وفق أنظمة حقوق الإنسان الأسير، وقوانينه حسب اتفاقيات جنيف الدولية .. نحن أسيرات سياسيات، محبوسات على قضية سياسية ".[١١٩] فالسجينة سهام كما بينت الوحدة السردية السابقة تتحدى المحتل ضمن مواثيق، وعهود معروفة دوليًا؛ ما يدل على ثقافتها، ووعيها، وإدراكها للواقع في التعامل مع السجان، وقيوده .

ومن منطلق هذه الثقافة، تتقدم سهام بطلب إلى إدارة السجون، يسمح لها بإدخال طفلتها الصغيرة عائشة السجن، إذ القانون يسمح لها بذلك.

" – جيد .. ألك مطلب خاص ..

– لا .. سوى أنني قدمت طلبًا لإدخال طفلتي عائشة ..

– كم عمرها ؟!

– سنة، وأربعة شهور ..

– هذا مستحيل ..

– ستدخل بإذن الله .. القانون ينص على حق المرأة الأسيرة بحضانة طفلتها دون سن الثانية ..

– أنت تحلمين ..

([١١٨]) الهودلي (أمهات ...)، مصدر سابق، ص ٦٠.
([١١٩]) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

– ألستم – كما تدعون– دولة قانون .. "[١٢٠]

ففي تلك الوحدة السردية التي جاءت على شكل حوار بين السجينة (سهام)، والسجان، ظهرت صورة المرأة المناضلة الشجاعة التي تمتلك وعيًا، وثقافة جعلاها ترفض ما هو مفروض عليها، فهي تتحدى السجان رغم محنتها النفسية، إضافة إلى أنها لم تستسلم للواقع الذي فرضه عليها السجان؛ لذلك عمدت إلى استخدام أسلوب التهديد بالإضراب المفتوح عن الطعام إن رفض السجان تحقيق مطلبها في حضانة طفلتها عائشة.

٢– بنية المكان:

وهو المكان المعادي محدد المساحة، غير ممتد كالأماكن المفتوحة، وهو في الغالب عبارة عن جدران إسمنتية ضيقة المساحة، وبالتالي نجد أن حركة الشخصيات تكون فيه محصورة، ومحدودة في حدود ما تسمح به مساحة هذا المكان، عكس المكان المفتوح الذي تجد فيه الشخصية انطلاقتها في الحركة، والتنقل، ورغم ضيق مساحة هذا المكان إلا أنه يؤدي دورا هامًا داخل الفضاء الروائي حسب ما تقتضيه الأحداث السردية في الرواية .

هذا، وترتكز البنية المكانية في رواية التجربة الاعتقالية على العديد من الأماكن المغلقة التي تشكل خصوصية تحمل دلالات وإيحاءات رمزية، كان لها الفضل في تشكيل لوحة المكان الاعتقالي، فهي تشكل ما نسبته ٩٥% إن لم نقل أكثرمن بناء الرواية، إذ ستقوم هذه الدراسة بتحليل أهمها حضورًا في النصوص الروائية السردية، ومن الأماكن التي شكلت حضورًا لافتًا في رواية التجربة الاعتقالية مكان:

السجن، وغرف التحقيق :

يشكل السجن بالنسبة إلى السجين مكان الانغلاق وتقييد الحرية؛ ما جعله مكانا معاديا يبث كافة الضغوطات النفسية، وقسوة المكان، ويعرف مكان السجن بأنه" الحيز الضيق المظلم الذي يناقض تمامًا العالم الرحب المضيء"[١٢١].

وهو المكان الذي لا تخلو روايات التجربة الاعتقالية من الحديث عنه، لكونه يحتل مساحة واسعة من القص الروائي، ويشكل مركز الأحداث السردية في الرواية، فهو المكان المسيطر، والمهيمن على جميع روايات التجربة الاعتقالية، فمن البديهي أن يكون هو المكان الرئيس فيها، وذلك لكونه يرتبط بمفهوم الحرية، ففيه يعامل السجين معاملة قاسية، ويحرم من أبسط حقوقه، وحريته بما فيها

([١٢٠]) الهودلي، (أمهات ...)، مصدر سابق، ص. ٢٦.

([١٢١]) ولاء التليمي، البنية السردية في نشوار المحاضرة وأخبار المناظرة، (رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة ديالي: كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠١٥). ص . ١١٣ .

حرية الحركة، والتنقل، فهو بؤرة الحصار المكاني إذ يظل معبرًا عن حضور الصوت القمع، وتسييج الذات، ومحاصرتها ماديًا ، وفيه تصعيد لمفهوم العقوبة، بخلاف الأمكنة الأخرى.[١٢٢]

والمكان الذي ترسمه رواية التجربة الاعتقالية مكان متميز؛ لأنه لا يقتصر على البعد الجغرافي، وإنما يذهب بنا بعيدًا إلى المحمولات الرمزية، والدلالية، وكأننا نعيش الحياة الداخلية للذات السجينة جراء وصف هذا المكان: "أناخت ناقلة العذاب أمام المسكوبية . تلك البقعة السوداء التي يعرفها سعيد جيدًا . فتحوا عليه الباب، وألقوا عليه عصابة سوداء كأنها قطعة من سواد نفوسهم "[١٢٣]

والسجن في رواية التجربة الاعتقالية، ذو خصوصية مختلفة عن بقية السجون الأخرى، نظرًا لخصوصية التجربة، وظروف الاحتلال التي نكلت بالشعب الفلسطيني، إذ إنه يصنف أي السجن من أماكن الإقامة الإجبارية، فهوبالنسبة للسجين: " نقطة انتقال من الخارج إلى الداخل، ومن العالم إلى الذات بالنسبة إلى النزيل بما يتضمنه ذلك الانتقال من تحول في القيم، والعادات، وإثقال لكاهله بالالتزامات، والمحظورات، فما إن تطأ أقدام النزيل عتبة السجن مخلفًا وراءه عالم الحرية حتى تبدأ سلسلة العذابات التي لن تنتهي سوى بالإفراج عنه"[١٢٤] . وهذا ما صرح به السارد المشارك قائلًا : "ذاهبون بك إلى غد مجهول الهوية، والعنوان. تسير القافلة وأسير بأفكاري في البرزخ الذي يفصل الحرية عن السجن، تتباعد الحرية، ويقترب السجن، وما أدراك ما السجن؟ ... هكذا فجأة تتلاشى من روحك المتعبة الدنيا، وكل ما فيها، ويسيرون بك إلى المجهول"[١٢٥] . فالملاحظ هنا أن مكان السجن بالنسبة للشخصية هو مكان مجهول، غير معروف، فيه تتلاشى كل معاني الحرية، فهو مكان الإقامة الجبرية المفروضة شاء السجين أم رفض .

والسجن بغرفه، وأقسامه، وملحقاته، يشكل حلقة من العذاب، والقهر يعيشها السجين داخل هذا المكان في كل أوقاته اللانهائية. من هنا اتخذت رواية التجربة الاعتقالية من البنية المكانية السجينة أرضية للسرد، إذ يؤدي مكان السجن دورًا حيويًا في بناء البنيات السردية، فيبدو هذا المكان مسكونًا بدلالات كثيرة،[١٢٦] إذ يبدأ الراوي بتهيئة هذا المكان بدءًا من العنوان: "ستائر العتمة تسعون يومًا من المواجهة الملتهبة في زنازين بني صهيون "[١٢٧] .

([١٢٢]) جنداري، مرجع سابق، ص . ٢٨٨ .

([١٢٣]) الهودلي، (ستائرج٢ ...) مصدر سابق، ص ١٤٠ .

([١٢٤]) بحراوي، مرجع سابق، ص ٥٥. .

([١٢٥]) الهودلي، (هكذا ...) مصدر سابق، ص٢ .

([١٢٦]) حسين مناصرة، وهج السرد" مقاربات في الخطاب السردي السعودي" (الأردن : عالم الكتب الحديثة ، ٢٠١٠) ، ص . ٤١ .

وتؤدي تقنية الوصف دورًا بارزًا في تصويرهذا المكان، وتقديم أبعاده، وخواصه الهندسية، وتصويره بطريقة فوتوغرافية؛ ما يجعله قريبًا لدى المتلقي فيسهل عليه تخيله.

فلقد عمدت رواية التجربة الإعتقالية إلى وصف هذا المكان ببالغ الدقة والتفصيل منذ لحظة اعتقال السجين، وإلقاء القبض عليه، فلم يكن الوصف في هذه الروايات يؤدي دورًا تزينيًا أو ممهدًا للحدث الروائي، ولكنه قائم بالمعنى الروائي الذي يعبر عنه السرد، لذلك فهو شديد الالتحام به[١٢٨]، إذ اتخذ وصف المكان منهجية واحدة تتشابه في جل الروايات قيد الدراسة، فمنذ اللحظة الأولى للاعتقال، يتم ترحيل المعتقلين إلى غرف التحقيق بهدف التحقيق معهم، وسحب الاعترافات، ويصف لنا الراوي في رواية (الشعاع القادم من الجنوب) مبنى التحقيق الذي اصطحب إليه :" جروني إلى الداخل المفقود إذ سيكون الخارج منه –إن قدر له الخروج– مولودًا ... أغلق الكيس عن عيني الصورة، وبقيت الأصوات الناشزة تناطح آذاني ... صرخات المعذبين، أنين المشبوهين، تهديدات المحققين ولعنات السجّانين .... أجساد متناثرة على الكراسي في مكان لا أميز طوله من عرضه، الحراس يجوبون ممر الشبح ..."."[١٢٩]تعطي هذه الأوصاف مجتمعة انطباعًا حول ممارسات المحققين ضد السجناء باعتبار أن التحقيق هو المحطة الأولى للسجين، ويصف السارد عملية نقل السجين إلى غرف التحقيق بالعملية الغامضة، حيث يصعب على السجين تحديد مساحة مكان التحقيق بسبب حجب الرؤية، كما ينقل لنا الراوي مشهد السجناء الذين يتم معهم التحقيق، وصرخاتهم تحت مطارق التعذيب، وتهديد السجّان لهم. وفي مكان آخر من الرواية يصف لنا السارد غرفة مكتب التحقيق بالوصف التفصيلي من الأثاث، وطريقة التصميم بقوله:"مكتب فخم .. طاولة، تلفون، كرسي رجل أعمال يدور بصاحبه، نافذة مجللة بستارة موردة، صورة الزعيم الصهيوني هرتسل معلقة خلف المحقق"[١٣٠] . وبعد الانتهاء من عملية التحقيق وتعذيب السجناء بغية الحصول على معلومات، يتم نقل السجين إلى قفص الانتظار حيث يتم تفتيش السجين بطرق مهينة على حد قول السارد:" تفتيش يدوي يتحسس كل مناطق الجسد الحساس منها وغير الحساس، ثم تفتيش آخر إلكتروني، حيث تمرر كاشفة المعادن – الزنانة– لتنقب عن مناجم المعادن في ربوع ذات الجسد، ثم توضع الأغلال في اليدين، والقدمين، وتساق نحو قفص الانتظار".[١٣١]حيث يقضي فترات زمنية لا يمكن تحديدها تمامًا ، حتى يتم تحويله إلى السجن ومنحه رقمًا مخصصًا لا يتم التعامل

---

(١٢٧) الهودلي، (ستائر١...) ،مصدر سابق، ص . ١ . العنوان

(١٢٨) لحميداني، مرجع سابق، ص .٧١ .

(١٢٩) الهودلي، (الشعاع ...) مصدر سابق، ص . ٩٥

(١٣٠) مصدر نفسه، ص٩٨ .

(١٣١) الهودلي، (ستائر٢ ...) مصدر سابق، ص .٧.

معه إلا عن طريق هذا الرقم، و يصف لنا السارد عملية إدخال السجين إلى داخل السجن: " دفعوه داخل السجن وأحكموا إغلاق الباب المدرع .. وجد نفسه يدور حسب روتين السجن المعروف إلى المخزن؛ لاستلام ملابس السجن القاتمة، ثمّ مقابلة مع ضابط أمن السجن؛ للإجابة عن بعض أسئلة السجن السخيفة، ثم يحمل صرة ملابسه القديمة على كتفه"[١٣٢] وبعد ذلك يتم نقله إلى ساحات الاستقبال ويصف لنا السارد مشهد استقبال السجين " توقفت حركة الساحة ، واصطف الأسرى على محيط الساحة، ثم تناولته أيديهم، وأحضانهم بعناقات حارة ... ارتعشت القلوب، وبرقت العيون بدموع، جمعت في ثناياها فرحة اللقاء"[١٣٣] وبعد وصف عملية التحقيق وغرف المحققين، وطرق استقبال السجين، تنتقل رواية التجربة الاعتقالية إلى وصف السجن بأبعاده الدقيقة، وأقسامه الداخلية، والخارجية، وما يتفرع عنها من أماكن ثانوية، فجاء وصف تلك الأبعاد وصفًا هندسيًا دقيقًا ، وذلك من خلال استخدام مفردات معينة من الحقل الهندسي، والبنائي، إذ يحاول الراوي تجريدها، وتحويلها هندسيًا ، بحيث تمكن القارئ من تخيلها بأبعادها على حد تعبير السارد:" يأخذ شكلًا مهينًا ، يذكرك بادئ ذي بدء بحديقة الحيوانات تقف فيه متحفزًا، مترقبًا، منتظرًا مصيرك المشؤوم، الذي تتحكم فيه بلادتهم وأحقادهم"،[١٣٤]فمكان السجن بشكله الهندسي يأخذ شكل حديقة الحيوانات حيث السيطرة الدائمة عليها، والتحكم المطلق بها

وتظهر رواية التجربة الاعتقالية بالوصف خصوصية التصميم البنائي للسجن، فكأن السجن عالم مختلف، له طابع هندسي، مصمم بشكل سلطوي نقيض لعالم الحرية: "يبدأ بفناء ضيق يتطاول من غرفة رقم ١ إلى غرفة رقم ١٢، حيث إنها معولبة على طبقتين يفصلهما سلم حديدي ماكر، هكذا هي سجونهم في صحراء النقب. هي على ثلاثة أشكال. أقسام عبارة عن مجموعة خيم، كل قسم تحيط بها أشباك عالية،، اصطلح الأسرى على تسميتها أقفاصًا، وهناك أقسام عبارة عن مجموعة خيم، كل قسم تحيط به أسوار اسمنتية متطاولة جدًا في البنيان؛ لذلك اصطلح الأسرى على تسميتها بالآبار، ثم هي التي خرج منها صاحبنا، التي أسموها أقسام المعلبات، لضيق جحورها، وانسداد أفق ساحتها."[١٣٥]

ويصف السارد حجرات السجن التي تم زجّه داخلها: "فتحت عيني أرسلت رسلها كي تتعرف إلى المكان الجديد، مستطيل من الجدران الخشنة، باب حديدي انتصف أحد الجدران .. تقف قبالته نافذة.. عفوًا مربع صغير تتشابك الحواجز الحديدية،

---

(١٣٢) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق ، ص ١٤٤.

(١٣٣) مصدر نفسه، ص ١٤٥.

(١٣٤) الهودلي، (ستائر ٢...) مصدر سابق، ص ٧٠ .

(١٣٥) المصدر نفسه، ص ص ٦، ٦ .

وتتضافر جهودها كي تمنع الهواء الخارج من الدخول .. تقع تحت هذه الثقوب الشوهاء قاعدة دورة مياه .. تنبعث منها رائحة الخبث، والخبائث، والعفن الآسن الذي يشق الصدر ضوء خافت ينبعث من سقف هذه الزنزانة المعتمة"[١٣٦] .

أما غرف السجن، فهي غرف ضيقة تكتظ بالنازلين، فكأنها علب من السردين على حد وصف السارد لها:" تقف على باب الغرفة... تتفاجأ، وتذهل عندما تصدم عيونك بستة عشر رجلًا ، يترامون في خنادق، تتمدد في جيوب غرفة ضيقة كضيق جدران علبة السردين ... نوافذ غريبة ضيقة تنغرس فيها عوارض حديدية غليظة ... تطوف على أضلاع الغرفة المربعة، فتجد أنهم اقتطعوا منه "دورة مياه" التي تئن من كثرة اللعنات التي تعتصرها البطون ..."[١٣٧] .كما يصف لنا السارد أثاث السجن " هذا هو السجن .. فرشة ممزقة .. جدران قذرة .. مرتع للصراصير رغم برودة الجو .. بطانية تدثر الأرض .. دورة مياه مكشوفة، يحيطها العفن من مكان ..."[١٣٨]. تصور لنا تلك المجتزآت النصية مكان السجن، كما وتكشف لنا الانتهاكات الصارخة ضد السجين في أبسط حقوقة، حيث يفقد السجين أبسط مكونات الحياة.

ومن الأماكن الثانوية التي تتعرض لها رواية التجربة الاعتقالية، دورات المياه، إذ يأتي الحمام من الأماكن المتفرعة من السجن، وهو المكان الذي يفتقر إلى أدنى مستويات المعيشة على حد وصف الراوي له :"بعد قليل فتح باب الحمام.. لولا أنه مرّ في هذه التجربة سابقًا ، لتعجب من قبر كهذا، يصنع له باب، يفتح، ويطلب من ساكنه أن يستحم. خرج مسرعًا حيث قاده الشرطي، ودفعه إلى حمام ... ودورة مياه فاضت نجاستها، بسخاء ... ماذا يفعل؟ أيقف هذا الماء الذي يطفو على رأسه، البراز والنجاسات؟ تذكر أن رائحتهن أيضًا ، تستدعي الحمام، وقد تكون هذه الإجازة كي يرتاح المحققون من رائحته .."[١٣٩]. ويبدو لنا من خلال تلك الصفات المستهجنة من الوصف، كيف استطاع السارد أن يصل بالقارئ إلى التعرف على أدق التفاصيل التي تعد مقززة في حياة السجين، ليس هذا فحسب، بل تحمل في طياتها الشعور بالتوتر نظرًا لفظاعة المكان.

ويأتي مكان الزيارة من الأماكن الثانوية التي استحوذت على اهتمام السارد بها، فيصفها بالقول: "ندخل أول باب كهربائي .. ندخل فم الغار ثمّ يغلق.. ننزل حوالي ثلاثين درجة تحت الأرض، ثم نسير نفقًا طويلًا في عتمة أضواء خافتة .. نرتقي بعد ذلك ثلاثين درجة .. صرنا على سطح الأرض .. نسير بعد ذلك في ممر طويل مغلق الجانبين بصفائح من حديد، لا نرى شيئًا عن اليمين وعن الشمال.. نصل بابًا بعد السير ما يزيد عن نصف ساعة تحت الأرض، وبعدها.. يفتح الباب لنجد أنفسنا نخضع

([١٣٦]) الهودلي، (الشعاع ...) مصدر سابق ، ص .١٠٨.
([١٣٧]) مصدر نفسه، ص .٨ .
([١٣٨]) الهودلي، (الشعاع ...)، مصدر سابق، ص ١٤٢ .
([١٣٩]) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق، ص . ٧٧ .

لعملية تفتيش تجوس خلال أجسامنا المنهكة بكل وقاحة، ومبالغة.. ونصبر، ونتحمل هذا الذل كي نرى نور عيوننا القابعة في هذه الغابة الكافرة"[١٤٠]. ورغم الصعوبة التي يواجهها ذوو السجين أثناء ولوجهم هذا المكان على حد وصف السارد له، إلا أن هذا المكان يشكل للسجين نقطة مهمة، إذ الالتقاء بالفضاء الإنساني الممثل بالأهل، وما يحملون له من أشواق، وأخبار عن العالم الخارجي:" مبروك يا إسماعيل .. جهز حالك بسرعة .. أنت اليوم عريس ولا أحد مثلك ... حملت نفسي مع قاسم ونزلت السلم الذي يوصلني إلى غرفة الزيارة...".[١٤١]

والسجن إن كان يراد به ذلك المكان الذي تنعدم فيه الحرية، إلا أن السارد يمكنه أن يعطيه بعدًا جديدًا ودلالة مخالفة، فهو عامل مساعد على لقاء النزلاء وإقامة الاتصال بهم لفتح الحوار واكتساب الخبرات وتبادل الأشواق[١٤٢]، ويصف لنا السارد هنا أجواء السجن: "الآخرون يفتحون أبواب التعارف، وبناء العلاقات الاجتماعية... فالأجواء مفتوحة، والقلوب متعطشة للمزيد من الانسجام، وتبادل الأشواق.[١٤٣] " فالسجن هنا يحمل معاني مضادة غير مألوفه لمكانه، فهو يغدو موضوع ثنائية مفارقة تجمع بين افتقاد الحرية وحرية اللقاء، وهو بهذه الدلالة ينزاح عن كونه مكانًا مغلقًا مخصصًا للحجز والعزلة.

١- بنية الزمن :

يؤدي الزمن بأبعاده : الماضية المسترجعة، والحاضرة القارّة، والمستقبلية المستشرقة دوره الوظيفي الفاعل في تشكيل الأحداث، وتصعيدها، ورسم أبعاد الشخصيات، وتصويرها في قلب المكان الذي بدوره ينفعل بحركة الزمن، ويرتبط في علائق متشابكة تؤكد دور كليهما في النص، فلم يعد الزمن في الرواية ذلك الخيط الوهمي الذي يربط الأحداث، ويؤسس العلاقات الشخصية فقد غدا أعظم من ذلك، وأخطر[١٤٤].

وترتكز الأبعاد الزمنية في رواية التجربة الاعتقالية على بعدين أساسيين هما :

- الزمن الطبيعي، هو الزمن التاريخي الذي يعمد فيه التاريخ إسقاط الخبرة البشرية على خط الزمن الطبيعي[١٤٥]، فهو العنصر الطبيعي المحدد بفترة زمنية محددة قد تكون سنوات، أو أيامًا، أو بضع ساعات، وتعرفه مها القصراوي بأنه :"

---

(١٤٠) الهودلي، (أمهات ...) مصدر سابق، ص ٦٤٠ .

(١٤١) الهودلي، (الشعاع ...) مصدر سابق، ص ١٩٢٠ .

(١٤٢) بحراوي، مرجع سابق، ص ٦٣ .

(١٤٣) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق، ص ١٤٦ .

(١٤٤) سمية سليمان شوابكة، "الزمن النفسي في رواية السجن السياسي"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م ٤٢. ع ٣. (٢٠١٥) ، ص. ٧٨٥ .

(١٤٥) قاسم، مرجع سابق، ص ٦٨ .

الزمن العام الشائع الذي نستعين به بوساطة الساعات، والتقاويم وغيرها لكي نضبط خبراتنا الخاصة للزمن بقصد العمل الاجتماعي، والاتصال والتفاهم، وغيرها "[١٤٦] .

ويتجلى الزمن الطبيعي في رواية التجربة الاعتقالية من خلال تركيز الراوي عليه، فهو العنصر المميز الذي يسيطر على السجين رغم افتقاده لآلاته المميزة، كتعاقب الليل والنهار، والساعات وغيرها، ويظهر هذا النوع من الزمن في رواية (الشعاع القادم من الجنوب)، وذلك لأهميته الكبرى في الخطة التي قام شخوص الرواية بتنفيذها إذ يقول السارد:

"كانت الساعة الخامسة وخمسًا وأربعين دقيقة، ميعادنا السابعة".[١٤٧] وفي مكان آخر من الرواية يقول :"كانت الساعة السادسة والنصف عندما أخذنا موقعنا"[١٤٨].

كما أن زمن الزيارة وموعده، هو زمن يحفره السجين في ذاكرته " أصبحت أتفاءل يوم الثلاثاء بعد هذه المفاجأة ... حفرت تاريخ هذا اليوم في ذاكرتي ... يوم ٩١/٤/٢٨ ظهرًا شرع مكبر الصوت بالنداء على أسماء الأسرى الزوار الذين حضرت أمهاتهم من خارج البلاد".[١٤٩]

وفي مقطع سردي آخر من رواية (ستائر العتمة) يحاول المحقق أن يؤدي لعبة الزمن محاولًا الضغط على السجين، إذ تشكل ألفاظ الصمت، والسهر الطويل، والبطء الزمني في الرواية، مفردات نفسية زمنية تلقي ثقلها على شخصيات الرواية، يقول الراوي :" نظر "إيلان" إلى ساعته وقال بصمت، الساعة السادسة صباحًا يا عامر، لم يبق أمامنا بعد هذا السهر الطويل سوى ساعة، أو نجدد معك أسبوعًا آخر على هذا المنوال .. لن تنام أبدًا إلا باعتراف ما .. مهما كان صغيرًا .. أمامك ساعة واحدة، الكرة في ملعبك، القرار بيدك .. دقائق معدودة ثم تذهب للنوم المريح، أو أسبوع آخر قابل للتجديد"[١٥٠].

فالملاحظ من تلك المقطوعة السردية، أن الزمن استخدم كوسيلة للضغط على السجين، وشن الحرب النفسية عليه، فالزمن ثقيل، وبطيء أثناء التحقيق .

أمّا رواية (أمهات في مدافن الأحياء) فقد عمدت الساردة (سهام) بطلة الرواية إلى مقارنة الفترة الزمنية التي قضتها في إضرابها عن الطعام، والوضع المأساوي الذي وصلت إليه، بحالة الشتات التي يعيشها الشعب الفلسطيني بعد نكبة ثمان وأربعين .

([١٤٦]) القصراوي، مرجع سابق، ص . ١٧ .

([١٤٧]) الهودلي، (الشعاع ...) مصدر سابق، ص . ٢

([١٤٨]) المصدر نفسه، ص ٣١ .

([١٤٩]) الهودلي، (الشعاع ...)، مصدر سابق، ص. ١٩٢ .

([١٥٠]) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق، ص . ٧٢ .

"في اليوم الخامس للإضراب تزحزح الصداع عن موقعه .. ارتحل مخلفًا وراءه ضعفًا، وهزالًا ، وزوغانًا في البصر .. تهالك الجسد، وفترت الروح، ولم يعد لي قدرة على أية حركة .. حتى الذكر أصبحت غير قادرة على بذل جهد للتركيز فيه ... حالة من الشتات، كشتات الفلسطينين بعد نكبة ثمان وأربعين...".[١٥١]

ويظهر لنا حديث الساردة، وهي تصف الفترة الزمنية التي قضتها في إضرابها عن الطعام، وحالها بعد الإضراب، وكأنها في صراع مع الزمن، إذ تحول الزمن إلى عدو ثقيل يستحضر الأوقات العصيبة المشابهة .

- الزمن الذاتي أو الزمن النفسي، الذي تتحكم فيه الذات الفاعلة، فتحول العادي إلى غيرعادي، فتعمد هذه الذات إلى تحويل الزمن الطويل إلى قصير في لحظات السعادة، وفترات الانتصار، وربما العكس في لحظات الحزن، والقلق، والظلم؛ لذا نجد أن الزمن النفسي لا يخضع لقياس الساعة مثلما يخضع الزمن الموضوعي، وذلك باعتباره زمنًا ذاتيًا يقيسه صاحبه بحالته الشعورية.[١٥٢] " إنه _بعبارة أخرى_ زمن نسبي داخلي يقدر بقيم متغيرة باستمرار تعكس الزمن الخارجي (exterior time) الذي يقاس بمعايير ثابتة "[١٥٣].

من هنا انصب اهتمام الروائين على هذا النوع من الزمن، وبذلك فقدت الأوقات، والأزمنة معناها، فأصبحت اللحظة أكبر دلالة، وأخطر من السنة.[١٥٤]" فالزمن، إذن، مظهر نفسي لا مادي، ومجرد لا محسوس، ويتجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفي غير الظاهر، لا من خلال مظهره في حد ذاته".[١٥٥]

وتعمد رواية التجربة الاعتقالية إلى تقديم هذا النوع من الزمن بشكل فني بنائي، ودلالي، نظرًا لما تمتاز به من خصوصية فنية إيحائية، ومن الأمثلة على ذلك وصف الراوي للزمن بالبطء الشديد: "أتدري كيف كان الوقت يسير في تلك الأيام ؟ ... لا أبالغ إذا قلت بأن اليوم بسنة، أي سنة، وأي يوم؟ ... كانت عقارب الزمن واقفة، تتمسمر مكانها .. الألم هو وحده الذي يسير".[١٥٦]

---

(١٥١) الهودلي، (أمهات ...) مصدر سابق، ص . ٥١ .

(١٥٢) مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، (رسالة دكتوراة منشورة، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠)، ص .١٨ . انظر، عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ١٩٩٨) ، ص . ١٧٦ .

(١٥٣) أ . مندلاو، الزمن والرواية، ترجمة بكر عباس ،(دار صادر: بيروت ، ١٩٩٧) ، ص . ١٣٧ .

(١٥٤) جنداري، مرجع سابق، ص . ٦٨ .

(١٥٥) مرتاض، مرجع سابق، ص . ١٧٣ .

(١٥٦) الهودلي، (الشعاع ...) مصدر سابق، ص . ٦٦ .

فحالة الألم التي تعيشها الشخصية، وتروي حالتها النفسية، قادها إلى حالة من اللاشعور ببطء الزمن الشديد، بل فقدانه إطلاقًا، وبذلك فقدت التواريخ، والساعات قيمتها داخل هذا الشعور، فبدا البطء الزمني، وكأنه عدو ثقيل، وبليد يأتي باليوم، وكأنه سنة، فيكون الزمن طويلًا، وطويلًا جدًا .

أمّا في رواية (ستائر العتمة) فقد "انتصر الزمن النفسي على الزمن الطبيعي الخطي الذي يتجه إلى الأمام، ولا يمكن العودة إلى الوراء، ويتجلى انتصار الزمن النفسي بتمكنه، وقدرته على تجاوز الحدود الزمانية والتقسيمات الخارجية (الماضي، الحاضر، المستقبل)"[١٥٧]، من هنا يقول السارد :" لقد أصبح مثقل الكاهل، وأيامه تمر ببطء شديد، وكأن دولابها قد أصابه الصدأ، وأوشكت حركته أن تتوقف، الساعات جامدة جمود هذه الزنزانة، لا يتحرك فيها إلا هذا الإنسان الذي تناوشته مخالب أحقادهم من كل جانب، الظلام مزعج أيما إزعاج، ليل طويل لا يتخلله أي نهار، كضيف ثقيل يأبى الرحيل"[١٥٨]. وهكذا تظل الشخصيات داخل المعتقل في حالة صراع مع الزمن، وحركته الحاضرة، إذ إن حياة هذه الشخصية وما تمر به من أحداث عصيبة تهب الزمن حركة بطيئة لا تخضع لقياس الزمن الطبيعي، فهي تملك زمنًا ذاتيًا تقيسه تبعًا لحالتها النفسية الشعورية التي تسيطر عليها .

وهذا المشهد السردي يختزل الزمن، ويجعله حاضرًا وقت الانتظار الحاسم، إذ إن الزمن بالنسبة لسهام هو إنسان يلقي ثقله عليها فتتمنى بدورها الخلاص منه :" أنا، وعائشة وحدنا نتحاور مع الزمن ... مع دقائق، وساعات طال بنا المقام طويلًا، ونحن نترقب، وننتظر لحظة الانطلاق من هذا الكابوس آه ... ما أطول هذا اليوم! ... الساعة تقترب من الرابعة ... حالة التأخر تعني الإفراج للغد ... سأعد ساعات الليل بطوله، وعرضه ... إنها لطويلة أن تؤجل إلى الغد"[١٥٩].

ففي المقطع السردي السابق عرضت سهام صراعها مع الزمن، إذ تحول الزمن إلى ضيف ثقيل خطواته بطيئة لا تتحرك، قاسٍ، بحيث يصعب انتظاره إلى الغد، فكأنه حمل ثقيل يثقل كاهل البطلة، فهي بصراعها مع الزمن، كانت تركز على نقطة واحدة، وهي الخروج من هذا السجن، فكأن الزمن في تلك اللحظة الحاسمة التي تقرر خروجها من السجن هو من أبطأ الأزمان، وأثقلها عليها وعلى تفكيرها.

([١٥٧]) القصراوي، مرجع سابق، ص . ١٨ .

([١٥٨]) الهودلي، (ستائر ١ ...) مصدر سابق ، ص ص . ٨٥، ٨٦ .

([١٥٩]) الهودلي، (أمهات في مدافن الأحياء ...) مرجع سابق، ص . ١٠٧ .

ومن الملاحظ هنا، و بعد المقاطع السردية المجتزأة من الروايات قيد الدراسة، أن الزمن في رواية التجربة الاعتقالية يسير برتابة، وبطء شديدين، نظرًا لصعوبة الظروف، والحالة النفسية التي يعيشها السجين داخل السجن أو الزنزانة، حيث يزداد الشعور ببطء الزمن شيئًا فشيئًا.

الخاتمة

لم يستسلم المعتقل الفلسطيني للسجّان، وقمعه، بل استطاع بعزيمته كسر القيد، ورفع سلاح القلم، وما زال الهودلي يكتب أعماله الأدبية بصدق وواقعية رافضًا الذلّ والخضوع في ظل غياب الحرّية؛ إذ استطاع من خلال تجربته الاعتقالية، ووعيه السياسي والاجتماعي بطبيعة الحال أن ينقل صورة هذا المعتقل إلى نصوصه الأدبية، فنحن في كلّ نصّ أدبي أمام صراع بين السجين وسجّانه، ولكن بصورة فنيّة أدبية تجذب القارئ، وتشوقه لمعرفة واقع أغرب من الخيال، فجاءت معظم نصوص الهودلي صورة حيّة لحياة الإنسان الفلسطيني داخل زنزانته، أدرك من خلالها الهودلي بقلمه المقاوم كيف يتسنّى له بجرأة أدبية نقلها إلى العالم الخارجي. كثيرة هي الموضوعات التي عالجها الأدب، والأدب الفلسطيني بشكل خاص، ولكن قليل منها ما يحفر في القلب ألماً عميقاً ، فبعد التطرق إلى أبرز الموضوعات التي تناولتها رواية التجربة الاعتقالية، توصلت الباحثة إلى النتائج التالية:

- نجحت رواية التجربة الاعتقالية في أن تكون النافذة التي تطل على الحياة القاسية التي يعيشها الأسرى داخل سجون الاحتلال، ويظهر هذا جلياً من خلال قدرة الكاتب وليد الهودلي على توظيف أبرز الموضوعات السردية التي وقف عندها البحث .

- فضحت رواية التجربة الاعتقالية أنظمة الاحتلال المستبدة وأساليبهم الظالمة في تعذيب السجين وإذلاله بكافة الطرق، حيث يتلذذ السجان بتعذيب السجين والتنكيل به بهدف تحطيم إرادته وكسر معنوياته وإجباره على تقديم اعترافات تدينه .

- كشفت رواية التجربة الاعتقالية عن الأساليب القمعية التي ينهجها السجان الإسرائيلي في محاولته لقمع السجين، خاصة إذا كان السجين مثقفاً كالكاتب وليد الهودلي .

- أظهرت رواية التجربة الاعتقالية الصمود الهائل والتحدي القوي الذي يظهره السجين في محاربة سجانه، فإرادته الثورية التي نمت وترعرعت في أحشائه لا تلين ولا تنكسر، بل كلما زاد الجلاد من قيوده وإجراءاته التعسفية الظالمة قويت عزيمة السجين وزاد تمسكه بخيار الصمود والتحدي.

- قدمت رواية التجربة الاعتقالية الشخصيات الروائية بصورتها الحقيقية، فعرضت تقييمًا لبعض من الشخصيات الرئيسية، والثانوية، تمثلت بصورة الرجل النموذجية، كنموذج (البطل المناضل والمحقق والعميل)، وصورة المرأة المناضلة المساوية، والمكملة لدور الرجل في مهمته البطولية.

- اعتمدت رواية التجربة الاعتقالية في تشكيل بنيتها السردية على بعدين أساسيين للزمن هما: الزمن الطبيعي بحركتة البطيئة التي لا تخضع لقياس الساعات، والدقائق، بل بحالة الصراع التي تعيشها الشخصية في خلوتها، والزمن النفسي، وهو زمن ثقيل بطيء تحكمه الحالة النفسية للسجين، ويوحي بخصوصية التجربة، وعمق الأزمة.

- كان الوصف تقنية طاغية في النصوص الروائية، إذ تناولت تقنية الوصف عنصر المكان كعنصر أساسي في بناء الرواية، فقدمت وصفًا بارعًا لمكوناته المادية بدقة المصور.

- شكل مكان السجن النموذج الأمثل لدراسة فضاءات المكان في رواية التجربة الاعتقالية التي انعكست بدورها على شخصيات الرواية، فتعمق لديها الشعور بهيمنة المكان؛ ليكون المكان هو البطل الحقيقي لهذه الرواية .

المصادر والمراجع:

المصادر:

١. وليد الهودلي ، الشعاع القادم من الجنوب، (فلسطين: مركز يافا للنشر والتوزيع، ط٣، ٢٠٠٣).

٢. وليد الهودلي ، أمهات في مدافن الأحياء، (فلسطين: مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة،٢٠١٠) .

٣. وليد الهودلي، هكذا أصبح جاسوساً ، (مركز بيت المقدس للأدب، ٢٠١٨) .

٤. وليد الهودلي، ستائر العتمة ج١(فلسطين: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ٢٠٠٣) .

٥. وليد الهودلي ، ستائر العتمة ج٢، (فلسطين: مركز بيت المقدس للأدب،ط٢، ٢٠١٨).

المراجع:

١. إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا، (دمشق: دار تموز، ٢٠١٣).جنداري

٢. ابن منظور،أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين، لسان العرب (بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، مجلد ١١، ط (٣)، ١٩٩٤) .

٣. أحمد محمد دحلان ، العلاقة بين مشاهدة بعض برامج التلفاز و السلوك العدواني لدى الأطفال في محافظة غزة ، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية: كلية التربية، ٢٠٠٣.

٤. أماراباك: مجلة علمية محكمة تصدرعن الأكاديمية الأمريكية والعربية للعلوم والتكنولوجيا ، المجلد(٧٠)، العدد(٢٠)، ٢٠١٦)١٢٥.

٥. جميل السلحوت، أدب السجون (فلسطين : دار الجندي للنشر والتوزيع، ٢٠١٢) .

٦. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، (بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠).

٧. حسين سرمك ، المشكلات النفسية لأسرى الحرب، (القاهرة : مكتبة مديولي ، ١٩٩٥) .

٨. حسين مناصرة، وهج السرد" مقاربات في الخطاب السردي السعودي" (الأردن : عالم الكتب الحديثة ، ٢٠١٠) .

٩. الحموز، عايد:الصلابة النفسية وعلاقاتها ببعض اساليب التعذيب الإسرائيلية ضد الأسرى الفلسطينيين في محافظة الخليل، مؤتمر الأقصى، جامعة القدس المفتوحة،غزة ،فلسطين،٢٠١٣.

١٠. رأفت حمدونة، الجوانب الابداعية للأسرى الفلسطينيين، غزة: وزارة الاعلام، ٢٠١٨) .

١١. رياض العيلة، عبير ثابت، الرؤية المستقبلية لحل قضية الأسرى الفلسطينيين (غزة،: مؤتمر الأسرى، ٢٠١٣) .

١٢. رياض مزهر، الاعتقال في السياسة الإسرائيلية في منظور القوانين (غزة،: مؤتمر الأسرى، ٢٠١٣) ، ص . ٢.

١٣. سعيد الوكيل، " السيميولوجيا الهرمنيوطيقية في التأمل النقدي" ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الخامس للنقد الأدبي (القاهرة،: ديسمبر، ٢٠١٠) .

١٤. سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة" الوجود والحدود" (الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠١٢) .

١٥. سمية سليمان شوابكة، "الزمن النفسي في رواية السجن السياسي"، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م ٤٢. ع ٣. ٢٠١٥.

١٦. عادل الأسطة، قضايا وظواهر نقدية في الرواية الفلسطينية (عكا : مؤسسة الأسوار، ٢٠٠٢)

١٧. عبد الرحيم الكردي، السرد في الرواية العربية المعاصرة " الرجل الذي فقد ظله أنموذجاً"، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٩٩) .

١٨. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفون والأدب، ١٩٩٨).

١٩. فايز أبو شمالة، السجن في الشعر الفلسطيني، (فلسطين : المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي ، ٢٠٠٣)

٢٠. محمود موسى زياد ،الأدب الفلسطيني في سجون الاحتلال الإسرائيلي ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بيرزيت : كلية الدراسات العليا ، ٢٠٠٥/٢٠٠٦)

٢١. مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، موسوعة تجارب الأسرى الفلسطينيين والعرب، (فلسطين: القدس، ٢٠١٤).

٢٢. مروان البرغوثي وآخرون، ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي، (رام الله: شركة مؤسسة الأيام، ٢٠١٠) .

٢٣. مصطفى حجازي ، الإنسان المهدور، (المغرب : المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٥).

٢٤. مقابلة الباحثة مع الكاتب، رام الله، ٢٠١٩\٨\١٢.

٢٥. ممدوح عدوان، حيونة الإنسان (سوريا: دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ، ط . ٦ ، ٢٠١٦) .

٢٦. مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية، (رسالة دكتوراة منشورة، الجامعة الأردنية: كلية الدراسات العليا، ٢٠٠١).

٢٧. نبيل العبيدي، أسس السياسة العقابية في السجون ومدى التزام الدولة بالمواثيق الدولية (القاهرة،:المركز القومي للإصدارات، ٢٠١٥)

٢٨. واصف أبو الشباب، صورة الفلسطيني في القصة المعاصرة من ١٩٤٨ إلى ١٩٧٣ (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٩)

٢٩. ولاء التليمي، البنية السردية في نشوار المحاضرة وأخبار المناظرة، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة ديالي: كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠١٤.

٣٠. يوسف حطيني، مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٩.).

٣١. يوسف شعبان، أدب السجون (القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤) .

المراجع المترجمة:

١. أ . مندلاو، الزمن والرواية، ترجمة بكر عباس ،(دار صادر: بيروت ، ١٩٩٧) .

المراجع الأجنبية:

١. Walash, Enda and Steve Mcgueen . 2008 .Hunger: 1981 Irish Hunger Strike .

٢. רונן יניב :אסירים ביטחוניים בבתי כלא בישראל (ירושלים :מרכז המחקר והמידע בכנסת ،2009، עמ" 11